الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
-البويرة-
كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Sciences Sociales et Humaines

قسم :الفلسفة **تخصص: فلسفة عامة**

عنوان المذكرة:

صناعة الثقافة عند

ثيودور أدورنو

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

من إعداد الطالب: **إشراف الأستاذ:**

لخضر بختي **حدة بعنون**

السنة الجامعية:2021-2022

بسم الله الرحمن الرحيم

« قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم »

سورة البقرة/الآية 32.

شكر وتقدير

نشكر الله عز وجل على توفيقه لنا في إتمام هذا العمل

أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى الأستاذة المشرفة " حدة بعنون"

التي اشرفت على هذا العمل وتابعتة منذ بدايته إلى غاية نهايته

والتي قدمت لي يدّ العون والمساعدة بتوجيهاتها القيّمة التي أنارت لنا الطريق في بحثنا هذا.

كما أقدم شكري إلى كل أساتذتي الأفاضل الأكارم

بايو-خابر- نابت- سليماني- غانم - مشاط

في قسم الفلسفة بجامعة البويرة

وأقدم شكري إلى كل من ساهم من بعيد أو من قريب ولو في وضع بصمة صغيرة ساعدنا في إتمام هذا البحث .

إهداء

إلى والديّ العزيزين عرفانا بفضلهما وتقديرا لهما.
إلى كل الأهل والأقارب...
وجميع الرفاق والأحباب...
أهدي عملي هذا.

مقدمة

مقدمة:

تعتبر مدرسة فرانكفورت من أبرز المدارس الفلسفية الغربية المعاصرة التي تطورت بفضل جهود روادها الذين أثروا الإنتاج الفلسفي للمدرسة في مختلف أجيالها ,الأول تحت قيادة كل من ماكس هوركهايمر و أدورنو و الثاني ممثلا في يورغنهابرماس و كارل أتوابل , و الثالث ممثلا في أكسل هونيت, و تشكل هذه المدرسة ,انعطافا مهما في مسيرة الفكر الأوروبي المعاصر,حيث كان لها الأثر الكبير و الفاعل في صياغة نظرية نقدية تتعامل مع السوسيولوجيا و الفلسفة , السياسة "الثقافة ,كأبعاد متداخلة و متشابكة في عملية تكوين و دراسة النظريات الاجتماعية و الأفاق المعرفية و الحضارية التي رافقت التطورات و التحولات التي شهدها المجتمع الأوروبي في ميادين الاقتصاد و السياسة.

ولقد انطلقت مدرسة فرانكفورت منذ نشأتها في مشروع بناء فلسفة اجتماعية تستمد مشروعية قيامه مباشرة من الفلسفة الماركسية و الهيجيلية ,هذه الفلسفة الاجتماعية التي أعلن هوركهايمر عن قيامها منذ محاضرته الافتتاحية تعتبر الإطار العام للمشروع الذي تمحورت حوله جهود كل رواد المدرسة بمختلف أجيالها بالرغم مناطروحاتهم الفلسفية المتباينة إلا أن هذا التباين لا يعني غياب جسر للتواصل بين مختلف أجيالها ,فمدرسة فرانكفورت تكتسي اليوم أهمية بالغة نظرا لثراء وتنوع كتاباتها المنفتحة على مختلف المرجعيات الفلسفية الكبرى من جهة ومواكبتها المعقدة المطروحة في المجتمعات المعاصرة و للتحولات الفكرية ة الاجتماعية والسياسية لعالمنا المعاصر من جهة أخرى والمتتبع لمسار تطور المدرسة في نهاية الأربعينيات و في الخمسينيات نجد أن روادها من الجيل الأول هوركهايمر و أدورنو قد اتجها إلى نقد جذري للعقل و للحضارة الغربية بشكل أساسي , فقد حاول هوركهايمر أن ينشط النقد الثقافي الجذري و ناقش بدوره مسألة التسلط العسكري و المشكلة الاقتصادية التي تشل الحياة الاجتماعية ،كما بين مع زميله أدورنو أن مفهوم العقل تحول إلى طريق التنوير، ليكون قوة لاعقلانية و لعل الحاصل من ذلك فرض العقل سيطرته لا على الطبيعة فحسب بل و على الإنسانية كذلك و هذا ما مثلثه الحركة الفاشية و الأنظمة الشمولية . و .إن الوتيرة السريعة للتقدم العلمي و التكنولوجي ووصوله إلى مستويات متطورة جدا ،جعلت بعض المفكرين يستشعرون خطورة الوضع فسارعوا إلى التحذير من مآلات هذا التطور و انعكاساته السلبية التي صارت تهدد الوضعالإنساني ككل, بحيث أنالوسائل التي يستخدمها الإنسان للسيطرة على الطبيعة قد سيطرت على

ذاته,و نجد في مقدمة هؤلاء المفكرين المحذرين من هذه الوضعية الكارثية على الإنسان و المجتمع و فلاسفة مدرسة فرانكفورت النقدية من الجيل الأول, و أخص بالذكر هوركهايمر و أدورنو اللذان عايشا عمليات التحديث في ألمانيا, خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية ,و هذا ما دفعهما على السير في تقليد ثقافي و فلسفي ألماني يتخد من السلب و النفي و النقد مبدأه الموجه .لقد أثار رواد مدرسة فرانكفورت الكثير من التساؤلات حول مختلف الحقول المعرفية ,و برزت الحاجة الماسة إلى إعادة النظر في الكثير منها بالاعتماد على نقدهم للفكر الفلسفي و الاجتماعي و رفضهم التماشي مع أطروحات النظام الاجتماعي الذي كان قائما آنذاك و نقد إيديولوجيته .و لم يتوقف نقدهم عند حدود المجتمع و مؤسساته بل تجاوز ذلك ليمس البنية الفكرية و السياسية لهذا المجتمع , بهدف الوصول إلى صياغة نظرية نقدية للمجتمع و هذا التوجه النقدي الجديد الذي بلورته مدرسة فرانكفورت , جعلها محل اهتمام النخب المثقفة في المجتمع الأوروبي عامة , و المجتمع الألماني خاصة باعتباره المجتمع الذي تأسست فيه المدرسة , كما لقيت اهتمام المثقف الأمريكي في أمريكا باعتبارهالم تتجاوز كونها قيما نظرية صورية, أدى نزولها إلى الواقع العلمي و الممارسة بفعل عصر التنوير إلى تمهيد الطريق لبروز الأنظمة الشمولية إن قيم عصر التنوير لا يمكن أن تتحول إلى واقع الممارسة و البراكسيس إلا إذا وجدت قوة الاجتماعية معينة تتكفل بهذا التحويل, أي الانتقال بهذه القيم من الإطار النظري الفكري إلى الممارسة الواقعية العملية , و لذلك انكبرواد مدرسة فرانكفورت و على البحث عن هذه القوة الاجتماعية التي تتمكن من إحداث التغيير الثوري للمجتمع و إعادة بنائه على أسس العدالة و الحرية والعقل فمهمة مدرسة مهمة نقدية راديكالية لواقع المجتمعات الغربية من الناحية الاقتصادية بحكم النظام الاقتصادي الرأسمالي , و الناحية السياسية بحكم هيمنة الأنظمة الفاشية و الاستبدادية, للكشف عن تناقضات هذا الواقع الراهن , و البحث عن البديل الذي يكمن في إفراز نظام اجتماعي و سياسي واقتصادي قائم على العقل ,يتحرر بموجبه الانسان من كل أشكال الاستبداد و من كل أنماط الوجود اللاإنسانية ,فمهمة بهذا التعقيد و الصعوبة لا يمكن أن تؤدي إلا انطلاقا من بناء النظرية النقدية من التفاعل بين الفلسفة و الرصيد المعرفي للعلوم الاجتماعية .

وفي هذا السياق يندرج موضوع بحثنا الذي غنون تحت تسمية : صناعة الثقافة عند ادورنو حاولنا من خلاله الاشتغال على المشروع النقدي و الفلسفي لمدرسة فرانكفورت في جيلها الأول و تحديدا حول كيفية صياغة أدورنو للنظرية النقدية و دورها في نقد المجتمع الأوروبي الغربي و كذلك المساءلة

النقدية لمشروع التنوير و للعقلانية الآداتية.وكانت الأشكالية العامة لهذا الموضوع كيف تحولت الثقافة بكل مضامينيها الى مجرد صناعة في المجتمعات الراسمالية هدفها تدجين الفرد داخل المجتمع الغربي ؟وكيف تحولت الثقافة في المجتمعات الصناعية الى وسيلة للخدااع الجماهيري؟ وماهي الاليات التي يمكن اعتمادها في نظر ادورنو لمواجهة هذا الانحراف والتمزق الذي تسببت فيه التكنولوجيا خاصة في المجال الثقافي؟ وتتفرع عنها مجموعة من المشكلات هي كيف كان تشييىء الثقافة عند المحتمع الغربي ؟ وكيف تمثلتصناعة الثقافة في الاديولوجيةالراسمالية؟ وماهوأثر صناعة الثقافة على الوعي الجماهير؟ وكيف انتقد أدورنو صناعة الثقافة ؟ وماهي البدائل التي قدمها في تجاوز العقل الأداتي؟

أما عن الدوافع التي كانت وراء اختيارنا لهذا الموضوع فيمكننا القول بأنها من جهة استجابة لهاجس تملكنا منذ تعاطينا لفعل التفلسف دراسة و تدريس, و هو أن للفلسفة دورا أساسيا في فهم مشكلات الواقع الإنساني , و تقديم الحلول للكثير منها , و في هذا إشارة واضحة إلى ضرورة ربط الفلسفة بالممارسة العملية, و هذا ما دافعت عنه مدرسة فرانكفورت بقوة خاصة في جيلها الأول, كرد فعل عن الوظيفة الإيديولوجية التي أسندت للفلسفة في في المجتمعات البرجوازية الأوروبية و التي تمتثل أساسا في أبعاد الأنساق الفلسفية عن الواقع فوجدنا أن موضوع المذكرة الذي اقترحه الأستاذ المشرف يجيب عن هذا الهاجس ,و من جهة أخرى فإن مدرسة فرانكفورت و مشروعها النقدي لم تحظ باهتمام كبير من قبل الباحثين العرب , و خاصة في جيلها الأول مقارنة برواد الجيل الثاني.

ولقد اعتمدت في ذلك على المنهج التحليلي، حيث اقتضى مني هذا الموضوع تحليل مسألة التنوير وتحليل الآراء والأفكار التي تناولت هذه الفكرة، وحاولنا أيضا من خلاله عرض أهم أفكار النظرية النقدية، كما اعتمدنا أيضا على المنهج النقدي وذلك بنقد آراء جيل الفكر الأنواري عامة وكذلك نقد آراء جيل المدرسة خاصة .

ولأجل معالجة الإشكالية التي يطرحها بحثنا هذا تم وضع خطة تضمنت مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة,وجاء عنوان الفصل الأول كالتالي:المرجعيات الفكرية لأدورنووالذي تعرضنا فيه إلى الحديث عن فلسفة أدورنو وأهم الخلفيات الفكرية لفلسفته وتم تقسيم هذا الفصل إلى اربع مباحث، الأول تناولنا فيه فلسفة أدورنو,أما المبحث الثاني كان حول علاقة أدورنو بماركس, وفي المبحث الثالث تحدثت عن علاقة أدورنوبهسرل, أما المبحث الرابع فكان في علاقته بفرويد, أما في الفصل الثاني فكان عنوانه في

نقد المحتمع الغربي المعاصر , ولقد قسم الفصل الى ثلاث مباحث . المبحث الأول حول اليات السيطرة في المجتمع الغربي وكان المبحث الثاني في المفاهيم الأسطورية المسيطرة على الثقافة الغربية.أما المبحث الثالث فكان في الصناعة الثقافية وأشكال السيطرة في المجتمع الغربي . أما الفصل الثالث نقد العقل الأداتي عند أدورنو وتم تقسيم هدا الفصل الى ثلاث مباحث كان المبحث الاول في الحديث عن العقل التنويري ودوره في تاسيس العقل الأداتي, وفي المبحث الثاني كان الحديث على نقد العقل الأداتي, أما في المبحث الثالث فعنون بتجاوز العقل الأداتي عند أدورنو.وفي الأخير خاتمة لأهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة.

اما عن الدراسات السابقة التي تناولت موضوع البحث,خلال البحث المضني عن المراجع والمصادر، لم نجد في مكتباتنا المحلية والوطنية، دراسات وجوه سابقة مستفيضة وذات شأن ،بالنسبة لموضوع بحثنا هذا ،عن الدراسات الجمالية عند أدورنو ولم تتناول هذا الموضوع بالدراسة والاستقصاء ،خاصة فيما يتعلق منه بالثقافة والجمال عند ثيودور أدورنو، وإن وجدت فهي تبقى ناقصة أو مبتورة يعوزها طابع الشمولية والدقة والعمق، هذا الموضوع الذي اخترناه هو في الحقيقة، مصحوبا بمجموعة من الأسئلة؛ الأكثر استفزاز وإثارة وعمق، التي تشكل عناصر هذا البحث المتواضع،قصد الإلمام بهذا الفكر الأدورني من عدة وجوانب، بغية الاقتراب منه أكثر لفهمه وتوضيحه وتبسيطه للآخرين ، والوقوف من ثم على جوانب وأبعاد ومقاصد هذا الفكر، الذي يشكل منحى متميز ومتطور لفكر مدرسة فرانكفورت، وتعتبر دراساته الجمالية بحق ،أكثر عمق ودقة وشمولية، من زملائه من أقطاب هذه المدرسة، لذا حاولنا حسب ما تيسر لنا من مراجع وبعض المصادر القليلة في هذا المجال، أن نلج موضوع هذا البحث ، مع التركيز على توضيح وتبسيط بعض المصطلحات المستعصاة و فك في مقدمة الوقت نفسه لبعض المفاهيم الغامضة ، وتجاوز النقص في مكتباتنا الوطنية بقصد الكشف أكثر عن إستراتيجيته في النفي والتجاوز، وما يتعلق بها من جهاز مفاهيمي، والتي على أساسها، تتفرع مسائل أخرى ،كمسألة الثقافة والجمال والعلم والايدولوجيا والسياسة واللغة والحداثة ...، كما نكشف عن قضايا أخرى ذات أهمية بالغة بالنسبة لموضوع البحث، كالتمركز والسيطرة والاستغلال والعقل الأداتي والإدماج المؤسسي، والتسويق البضاعي للبرامج والمشاريع الإعلانات والإشهارات والمفاهيم البراقة، وكل المنتجات الصناعية الفكرية للحضارة، بغية إبقاء الغرب البورجوازي، على الواقع الرديء

والبذيء ،الذي يعيشه الإنسان المعاصر، والاستمرار من ثم على ريتم السيطرة،وفي الآن نفسه ؛مغالطة الجماهير ، بدعوى العقل التنويري.

أما بالنسبة لأهم المصادر التي اعتمدت عليها من أبرزها نجد جدل التنوير، مؤلفاه هوركهايمروأدورنو، وثانيهما كتاب النظرية النقدية والنظرية التقليدية لهوركهايمر، وثالثهما اعتمدنا على كتاب الإنسان ذو البعد الواحد لماركيوز، دون أن ننسى في ذلك المراجع التي اعتمدنا عليها وكان لها الفضل في طريقة فهمنا لمختلف أفكار فلاسفة الجيل الأول، نجد من أبرزهم المؤلف "كمال بومنير" وعلى سبيل المثال، جدل العقلانية، قراءات في الفكر النقدي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث

ونجد من أهم الصعوبات والعوائق التي صادفتني في هذه الدراسة ما يلي * :اطلاعنا على موضوع مهم ومن ثم تم سحبه منا وتأخرنا الشديد لأخذ هذا الموضوع* .عدم توفر كل المصادر المترجمة إلى العربية في الجزائر، مثل أفول العقل لهوركهايمر والنظرية الجمالية لأدورنو .وكذلك عامل الوقت وطبيعة الموضوع تتطلب الوقت أكثر من ذلك باعتباره موضوع واسع ويمثل مجال واسع في التفكير النقدي.

الفصل الأول

المرجعيات الفكرية لأدورنو.

المبحث الأول: فلسفة تيودور أدورنو.

المبحث الثاني: علاقة أدورنو بماركس.

المبحث الثالث: علاقة أدورنو بهوسرل .

المبحث الرابع: علاقة أدورنو بفرويد .

المبحث الأول : فلسفة أدورنو تيودور فيزنجروند Adorno,Th. W (1969م 1903م)

فيلسوف وباحث في الاجتماع والنقد الأدبي وفلسفة الجمال، وبخاصة النظرية الموسيقية. يعدّ بجانب صديقه ماكس هوركهيمر الذي اشترك معه في تأليف كتاب «جدل التنوير» المعبر عن النظرية النقدية –[1] من أهم رواد مدرسة فرانكفورت . دفعته مُيوله الموسيقية في بداية حياته إلى التتلمذ في فيينا على المؤلف الموسيقي «ألبان بيرج»، والانضمام لحلقة «شونبرج» التي تفككت عام 1928م، فرجع إلى موطنه الأصلي في مدينة فرانكفورت على نهر المين، وانضمّ إلى جماعة هوركهيمر الذي تولى سنة 1930م إدارة معهد البحث الاجتماعي الذي كان قد تأسّس في هذه المدينة سنة 1923م، وعندما قام النازيون بحل المعهد لجأ إلى إنجلترا وأقام عدة سنوات في أكسفورد، ثم لحق بمعظم أعضائه الذين هاجروا إلى نيويورك وواصلوا هناك دراساتهم في نقد المجتمع «البرجوزاي» وثقافته الرأسمالية «المصنّعة» التي دمغوها بالشمولية والقمع والتسلطية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تلقى دعوة للتدريس في جامعة فرانكفورت، فانتقل إليها مع مورو ومر ومعهد البحوث الاجتماعي، وتولى معه الإشراف عليه، ونشر في مجلته (مجلة البحث الاجتماعي معظم مقالاته ودراساته التدريبية والنقدية الاجتماعية والجمالية التي تركزت حول تحليل التسلطية، بوصفها سمة شخصية وطابعا مميزا المجتمع – وبخاصة المجتمع الشمولي الرأسمالي والاشتراكي – وتتبع جذورها المعادية للسامية، في نظام الطغيان النازي .[2]

تقوم فلسفة أدورنو في مجملها على نقد الحداثة وفضح ما آلت اليه المجتمعات الرأسمالية المتقدمة من جشع وبربرية لاأخلاقية ومادية ، ولم يكف أدورنو في كتاباته عن تشخيص ازمة المعنى وكسوف العقل ، وتشويه الفرد وتحول الفن والثقافة إلى سلعة وبضاعة . وسقوط الحضارة ونزولها من سلم الإنسانية كل هذه التغيرات السلبية والكارثية الحاصلة في العالم بعد الحداثة لم تمنع مفكرنا من مشروعه الفلسفي والفكري من الانفتاح على الواقع وتقديم صورة نقدية للواقع ورسم لوحة جمالية يقدم من خلالها ثورة حقيقية من أجل تحرير الافراد من مجتمع الهيمنة .

---

[1]- نورالدين بوزار، الفلسفة العلوم الاجتماعية عند مدرسة فرانكفورت ماكس هوركهايمر وتيودورأدورنو-نموذجا- دراسة تحليلية نقدية، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، اشراف سواريت بن عمر، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2، السنة الجامعية 2016-2017، ص 29.

2- المرجع نفسه، ص 30.

يمكن إيجاز أطروحات أدورنو النقدية في ثلاث جدليات مركبة ومتداخلة بعضها مع البعض الآخر: جدلية العقل، والجدل السلبي والنظرية الجمالية، وتشكل مفهوما مركبا لنقد الحداثة وما بعد الحداثة. وفي كل ذلك ينطلق أدورنو في نقده الجدلي من الداخل، فهو ينقد الفلسفة التقليدية وينقد الإنسان المحاصر بتناقضات الذات والهوية، وخاصة بعد انهيار منظومات الفكر الفلسفي المثالي، الذي أنتج بدوره تناقضا يقوم على اختراق الفرد المحاصر بتصور معين لهويته وشموليته التي تذوب في مؤسسات الدولة والسلطة والمنظومات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التابعة لها."أ) على الرغم من تعدد اهتمامات «أدورنو»، فثمة مقولات أساسية تقوم عليها فلسفته في التاريخ، وتحليلاته النقدية للوعي الاجتماعي والمعرفة والثقافة والفن في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي بوجه خاص، والمجتمع الإنساني بوجه عام. ويبدو أنه قد تأثر تأثرا كبيرا بما لاحظه فيلسوف الحياة جورج زيميل (١٨٥٨-١٩١٨م) من أن تاريخ الفلسفة يكاد يخلو من الإشارة إلى عذاب الإنسان ومعاناته المأساوية. وقد جعل أدورنو هذه الملاحظة العميقة شعارا موجها لتفكيره، واهتم بالتعبير عن انكسار الفرد عبر التاريخ الاجتماعي كله والتاريخ المعاصر خاصة، وتحطيمه بفعل قوى غاشمة مجهولة" [1]وفي نقده للفلسفة التقليدية ينقد بدوره الوضع الاجتماعي المتأزم للفرد الذي يتجاوز حدود إشكاليات الوعي المتحكمة به وبأفراد المجتمع. وبهذا ينزل أدورنو الفلسفة من عليائها إلى الواقع الاجتماعي، ليربط بين النظرية والممارسة العملية ربطا جدليا. فهو يقول "من يريد اختيار الفلسفة كعمل مهني دؤوب، عليه أن يستغني ومنذ البداية عن الأوهام التي عملت بها الفلسفة القديمة، وأن يدرك الواقع من خلال الفكر". بهذه المنهجية السوسيولوجية التحليلية يطرح أدورنو جدله السلبي ليواجه به الفلسفة الألمانية التقليدية، من الميتافيزيقيا الهايدغرية إلى الوجودية الأنطولوجية. ومن يتأمل أعمال أدورنو طيلة العقود الأربعة الأخيرة من عمره يلاحظ بوضوح تشديده على نقد هايدغر وبخاصة في الستينات من القرن الماضي حيث انتقد "لغو الوجودية" ومشروع هايدغر الفلسفي في العشرينات من القرن الماضي الذي توجه بكتاب "الكينونة والزمن" الذي صدر عام 1927. وكان هدف أدورنو فيه هو فضح الخطاب الفلسفي الألماني لما بعد الحرب العالمية الثانية الذي يذكر المرء بتعابير وشعارات ولغة نازية. كما سعى من جهة أخرى إلى الكشف عن وجود علاقة بين فلسفة هايدغر والأيديولوجية النازية عمل أدورنو على ترسيخ أسس ومبادئ النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت وتقديم نظرية نقدية للمجتمع لا

[1]- عبد الغفار مكاوي ، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مؤسسة هنداوي سي اي سي ،المملكة المتحدة ،2017، ص 49.

تكون علما إمبيريقيا فحسب، بل علما اجتماعيا نقديا يحقق ما دعت إليه الطبقة الوسطى في أوروبا في حق الحرية والصراع الاجتماعي والقضاء على الظلم، وألا تبقى هذه المبادئ على المستوى النظري، وإنما عليها أن تنزل إلى مستوى الممارسة العملية، مثلما عليها ألا تهادن أي سلطة، ما دام هدفها سيطرة الإنسان على حياته الذاتية مثلما هي على الطبيعة، بهدف رفع الوعي الاجتماعي الشامل الذي يستطيع تحمل مسؤولية التغيير في المجتمع.

وضع أدورنو خلال حياته عدداً من مؤلفات فلسفية نقدية مهمة، استحق بالاستناد إلى ندرة موضوعاتها وعمقها، اكتساب صفة مفكر معاصر أصيل– له ما يميزه بالفعل عن مفكري عصره على نحو عام، أو عن مفكري المدرسة التي ينتمي لطروحاتها على نحو خاص.

فإذا أردنا إحصاء نوع هذه الموضوعات التي تعامل معها أدورنو مؤلفاته كلها أمكنت القوة بإنهاء ما يمكن أن تتمثل بالعلاقة التي تجمع على نحو مترابط عميق، مجموعة من المفاهيم المتداخلة العاملة، مثل (المجتمع، الثقافة، العلم، السنن، السياسة، نقد الماركسية الرأسمالية ولئن كانت هذه المفاهيم مشتركة في تناولها بين أغلب مفكري عصر ما بعد الحداثة، فإن لها ما يميز استخدامها والنظر إلى علاقاتها في فكر أدورنو:

يعد أدورنو صاحب فكر مميز حيث أراد من خلال فلسفته ان يقارب بين التأمل الكلاسيكي الالماني الفلسفي والتاريخي والاجتماعي ، وبين تعاليم التحليل النفسي والماركسية هذا ما يضفي نوعا من الإبداع والفردانية على فلسفته فقد ركز ادورنو على مشاكل المجتمع من الناحية الاستهلاكية للثقافة .

ويتجلى فكر أدورنو بدرجة أكبر على دراسة الجانب الفلسفي والاجتماعي والفنون والأعمال الأدبية ، حيث نشر كتاب "نظرية الجمال " لاول مرة بعد وفاة ادورنو بسنة، وهو التتويج الغير مكتمل للعديد من آراءه في الجمال كبديل للثقافة والسيطيرة الاجتماعية التي اصبح يعيشها الانسان ي زمن مابعد الحداثة "يعتبر أدورنو الأعمال الأصيلة للفن (الحديث) جزءاً لا يتجزء من وحدات المجتمع. ما تحويه من توترات ضرورية الوجود تعبر عن صراعات هي أيضا ضرورية الوجود في العملية التاريخية الاجتماعية الأشمل، والتي هي بذرة النشأة والانتماء، تدخل تلك التوترات إلى العمل الفني من صراع الفنان مع المواد المحملة تاريخيا واجتماعياً، والتي تستدعي تفسيرات متضاربة بسبب سوء قراءة

إما لتلك التوترات الداخلية أو لاتصالها مع المجتمع ككل، فيرى أدورنو أن تلك التوترات والصراعات كـ"تناقضات" مطروحة للنقاش ومن ثم الحل، لحلها بالكامل، يتطلب ذلك تغيير اجتماعي كامل ولقد عبر أدورنو عن أفكاره الجمالية من خلال دراسات نظرية وتطبيقية، أما النظرية فهي تبدأ في كتابه « جدل التنوير»، حيث تحدث عن الثقافة الصناعية وتحدث عن التلفزيون وأنماط الثقافة العامة، وبيّن السمات العامة والخاصة للثقافة لدى الجماهير في المجتمع الصناعي[1] واما التطبيقية فتظهر في الفن كمخرج من الهيمنة والسيطرة الجتماعية لذلك ف« إن النهج الذي ينبغي أن نسلكه، للخروج من الوضعية المزرية التي يعاني منها الإنسان تبدأ من اعتبار أن المشكلة في الأساس مشكلة جمالية، ذلك أنه عبر الجمال نفسه يمكن أن نصل إلى الحرية.»[2]وعليه فالفن عند ثيودور آدورنو ليس سلعة تعرض للبيع و الشراء، و بذلك يعتبر الفن الذي تصنعة و التكنولوجيا أو التقنية، ما هو إلا مخدر و سالب لوعي المجتمع الأوروبي، وفي هذه النقطة بالذات تظهر لنا ملامح النزعة النقدية عند أدورنو من خلال نقده للفن الأداتي.

كما يمكن اعتبار الفن عند أدورنو ذو صلة رفيعة ومباشرة مع الإنسان، و ليس هناك أي وسيط بينهما، وبالتالي حاول أدورنو هنا إعادة المكانة الحقيقة للفن، وذلك باعتباره وسيلة لتحرر الإنسان، كما يعتبر أيضا مرآة عاكسة للواقع الإنساني الغربي المعاصر، من خلال معايشته للإنسان ومحاولة إيجاد حلول بديلة لمأساته الدائمة، وبالتالي فتحرير الفرد و المجتمع– حسب أدورنو – لا يكون عبر الصناعة الثقافية، و لا عبر وسائل الإعلام، بل بمعايشته للواقع الإنساني ومحاولة إيجاد حلول آنية لتلك الأوضاع. يقر أدرنو من ناحية أخرى، على أن الفن في عصرنا المعاصر انحاز عن الغاية المرجوة منه، وذلك من منطلق سيطرة التقنية والتطور العلمي الحاصل، وبالتالي أصبح الفن لا يعبر تعبيرا مباشرا عن أزمة إنسانية قائمة. خاتمة . وتوصلنا من خلال دراسة الفن عند أدورنو إلى أن العصر المعاصر يمثل ثورة علمية وتكنولوجية هائلة، ساهمت بقسط كبير في سلب العقل الإنساني، وجعلت منه عقلاً أداتيا دون سواه، ولهذا كانت دعوة أدورنو صريحة إلى محاولة إعادة الفن إلى نهجه الصحيح، من خلال تعبيره المباشر عن مختلف المشاكل والأزمات التي يعيشها الإنسان في مختلف مجالات الحياة، وهو بمثابة الخلاص للمجتمع .

[1]- بسطاويسي رمضان،الأسس الفلسفية لنظرية ادورنو الجمالية، مجلة أوراق فلسفية، العدد 07، ديسمبر2002، مركز النيل للكمبيوتر، القاهرة، مصر، ص 243.

[2]Schiler Friedrich, lettres sur l’éducation esthétique de l’homme, Traduit de l’allemand par Robert Leroux, Edition Aubier, Paris, 1943. P .75

المبحث الثاني : علاقة أدورنو بماركس.

تعتبر الفلسفة الماركسية من أهم المرتكزات الفكرية و الفلسفية التي يتأسس عليها الإطار النظري و الفلسفي لمعظم أعمال فرانكفورت و يظهر في البدايات الأولى لتأسيس المعهد لقد كان من المفروض كما تمت الإشارة مسبقا أن يسمى هذا المعهد بمعهد الماركسية مع تولي "جرينبرج" إدارة المعهد كما أن هذه الإدارة التي تمثل المرحلة الأولى من تاريخ المدرسة اعتمدت على أعمال كارل ماركس كإطار للتفكير إلى غاية 1930 كما هو معروف في تاريخ الفلسفة الماركسية أنها تقوم على جهاز مفاهيمي يشكل رؤية فلسفية ثم استطلاح عليه بالمادية الجدلية التي وجدت ترجمتها في إطار التاريخ إلى المادية التاريخية و هنا يمكن الحديث عن مصطلحات مثل التاريخ، قوى الإنتاج، علاقات الإنتاج، نمط الإنتاج، الطبقية، الصراع الطبقي، التحول و الصيرورة، الأنظمة الاقتصادية التي تتمثل في الشيوعية الإقطاعية الرأسمالية الاشتراكية ،"أما فكر أدورنو بإزاء هذا الموضوع، فهو أكثر التباساً وقصوراً. ففي مقال مبكر له عن نظرية الطبقات، قدمه خلال مرحلة الاشتراكية الوطنية ، ألح على القول بأن من يقع عليهم الاضطهاد لم يعد بوسعهم اكتشاف أنفسهم كطبقة، لأنه بدل أن تصبح طبيعة المجتمع الطبقي واضحة على نحو قاطع، فإن المجتمع الجماهيري الذي بلغ أوجه جعلها غامضة، وأنه على عكس نظرية ماركس، أصبحت البروليتاريا عقيمة اجتماعيا"[1]

يعد المهاد الماركسي في تعامله مع القوى الاجتماعية والفكرية والثقافية السائدة في عصر من العصور ، الارضية التي انطلقت منها مرسة فرانكفورت في توفير الاطار النظري والمفاهيمي للنظرية الاجتماعية ، "والقول جزافا بتشكل هذه النظرية داخل الإطار الماركسي ، إلا أن هذا التوجه كان مركزا على منهجها النقدي أكثر من تركيزه على ادعاءاته التنظيمية " فقد انطلقت المدرسة من الإرث الفلسفي ، والمرجعية الماركسية (...) من خلال نزعة نقدية للمجتمع . [2]وقد حاول أدورنو إعادة إنتاج مفاهيم الماركسية في علم الجمال من أجل إعادة النظر في الإطار النظري التفسيري للماركسية و تجاوز الدغمائيه و الوثوقية .

[1]- توم بوتو مور، مدرسة فرانكفورت ، ترجمة سعد هجرس ، ط2 ، دار أويا، بن غازي، ليبيا 2004، ص 76.
[2]- توفيق شابو،النزعة النقدية الثقافية عند مدرسة فرانكفورت، براديغمات الانسان-الثقافة-الفن، مجلة اللغة العربية وآدابها ، المجلد 05، العددالاول، جامعة البليدة، ديسمبر 2017 ، ص47.

يعتبر ثيدور أدورنو ،أول من قام بمحاولات جدية ودؤوبة، في نقد الجمالية الماركسية ،ونظريات الواقعية الاشتراكية، وإن كان تأثره بالفلسفة الماركسية واضحا وشاملا ،لعدة أفكار ونقاط فيها، كفكرة الطبقية والصراع، وتقسيم العمل ، والثورة...،وأهم نقطة انطلق منها ثيودور أدورنو، وهي نقد الأدلوجة كما هو الحال عند الماركسية ، لكن الحال عند أدورنو أكثر دقة وانفتاح وجذرية، من تصور ماركس لنقد الأدلوجة ،التي ربطها بالنظرية الثورية، حيث شكك أدورنو،في تصور ماركس للأدلوجة وللذات الثورية، واعتقد أنها ربطها بتصور ومعنى ثابت للثورة ، وعارضه في ما يخص الاجتماعيات الماركسية، أو ما يسمى علاقة الجمالي بالأدلوجة ،وهناك بالضبط، يزداد الاختلاف ويتسع التباين بين مضمون النظرية النقدية ، وملامح الجمالية الماركسية فيما يتعلق بمسألة علاقة الكتابة الفنية أو الفكرية بالأديولوجية وإذا كانت الجمالية الماركسية قد تناولت فكرة أن ارتباط الجمال بمفاهيم العلاقة والصلة والانعكاس والتماثل والتصوير مرنمنة علاقة الجمالي . السياسي في أسر المضمون أو المحتوى ، فان أطروحة مدرسة فرانكفورت ترى أن الفن او الجمال إيديولوجي في جوهره، وهي الأطروحة التي تم استند عليها في تقييم الماركسية، وفي صياغة استراتيجية النفي والتجاوز، كما نحا أدورنو منحا ابستمولوجيا جديدا ، ينتصر لفكرة تعدد المعنى ،حيث "رفض ، سواء في تحليلاته للموسيقى أم في دراساته النقدية للأدب ، الموقف الذي يختزل الفن إلى مجرد انعكاس بسيط للواقع المجتمعي ، وتناءى كذلك عن المفهوم الالتزام اللينيني والجدانوفي والواقعي الاشتراكي، وأعاد الاجتماعيات الماركسية برمتها إلى فلسفة هيجل التي رأت في الأدب تعبيرا عن فكرة وعن نسق مفاهيمي وهو شكل من النظر يدع جانبا الطابع المتميز للفن، ويجهل أو يتجاهل أن تميز اللغة الأدبية يتحدد بتعارضها مع اللغة اليومية الموسومة بالشفافية وواحدية المعنى ".[1] وهكذا تنحو استراتيجية أدورنو منحى هدميا تجاوزيا ،يؤمن بزوال المعنى ، في مقابل النظرة النسقية أو التصور الذي يقوم على التماثل او الانعكاس ،والذي يبقى دوما، رهين أفكار متماسكة ومنسجمة ،تصب في واحدية المعنى، وتبقى باستمرار، سجينة النظام والرؤية الكلانية والتفسير المطلق، والذي بدوره يؤدي إلى أدلجة الفكر والأدب والفن،و هو يتخذ من هذه الأدلجة المتوارية داخل ثنايا النسق الكلياني ذي الحضور السياسي أو الإديولوجي ، اتجاها إقصائيا للفن الجمالي الحقيقي ،ويضع حد لتحرر الجمال

[1]- عبد الجليل بن محمد الأزدي ، محاضرة مطبوعة حول جماليات النفي والبحث عن الاستقلالية لدى مدرسة فرانكفورت ثيودور أدورنو نموذجا ،جامعة السانية وهران ، مخبر الفلسفة وتاريخها ، يومي 21/20 نوفمبر 2011، ص 2، 3 .

الفني، من وحل المعنى. كما أن نقد أدورنو،" موضوعاتية الإدراك الماركسي، للفن والجمال ، بالفصل بين مجتمعين، ينحدران من أصل واحد ، هما المجتمع في الواقع، و"مجتمع العمل الفني" الذي هو تأسيس خاص، ينشد إلى المجتمع المرجع ، ولا يكرره . يظل مقيدا بمسبق فكري، يتخفى وراء مقولة العفوية الفاعلة، ومفهوم الاستقطاب العكسي ،كالانطلاق من العمل الفني، إلى المجتمع ، فلا يتخلص كليا من سجن موضوعاتي ، يقيد تمرده بشرطية الانتماء إلى الماركسية ، ليخفي بالوسائط التنظيرية، آلية الفكر الأول فالفلسفة الماركسية ،وان كان يلتقي معها أدورنو ،في فكرة الثورة على الطبقة البورجوازية، وعلى نقد الاستلاب والاستغلال وغيرها، إلا أن أدورنو بمنهجه الجدلي السلبي، الناقد لكل نظرية متسقة، ولكل مذهب فكري ، يعيب على فلسفة الجمال عند كارل ماركس، إيمانها بنظرية الانعكاس ،التي ترى أن الفن أو الجمال الفني، مجرد انعكاس للواقع اليومي المعاش، وللواقع الإنساني ككل، بكل تناقضاته والتباساته، " ومن هنا فالنظرية النقدية – حسب أدورنو – هي نقد للواقعية الماركسية والانعكاسات الساذجة ، التي تعقد الصلة المباشرة بين الأدب والمجتمع في جل تناقضاته السياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية " لكن أدورنو، يرى أن هذا الإيمان، يؤدي إلى صنمية الفكر، والسقوط في فخ الأدلجة ،أو التسويق السياسي، كما سبق وان ذكرنا،وان الجدل يجب أن يبقى مفتوحا على المستقبل باستمرار ،ولا يؤمن بحقيقة أيديولوجية ما، كما أن الواقع ليس هو الحقيقة، فهناك فرق بين الواقع المعاش والحقيقة الفعلية ،هذه الأخيرة التي لا نجدها أبدا،مرتسمة على ظاهر الواقع، ولا يمكن اعتبارها حقيقة جاهزة، بل نبحث عنها بعناء؛ وبشكل دؤوب، خلف الوقائع الظاهرة لنا،وفي ما وراء الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، المزدحمة والمتراكمة. لذا يجب سلب هذا الاعتقاد السائد، في الفكر الماركسي واستبداله بإستراتجية سلبية، نافية لكل الحقائق الواقعية، التي تكرس كل ما هو مألوف وعادي وسائد، والذي لا يعكس الواقع الحقيقي،ولا الحقيقة الواقعية ،لان الحقيقة الفنية هي التي تقبع وراء الواقع الماثل أمامنا ،وتستتر خلف تراكماته المغربة ومكوناته الجذابة، والموهمة بالسعادة والخير والجمال ،لكنها تعبر في الحقيقة، عن أديولوجية متوارية ، ذات طابع مسيطر بل متغطرس، لا يسمح بالتغيير والتنوير، بل يسم أشكال السيطرة والتوجيه القسري ، لأفراد المجتمع ،مشجعة في الوقت نفسه، لوجوه الترفيه واللذة والبهرجة ، حتى تبعد الناس عن الوجه الحقيقي للتغيير والتنوير والتطوير،ومستغلة في الوقت نفسه جهل الناس،وغياب وعيهم عن الحقيقة الفعلية وعن الثقافة الحقة التي يجب أن يولون لها وجوههم ، ويعطونها لها اعتبار أكبر، وحظ أوفر، من الأهمية والقيمة

التي تستحقها، للثورة على نمط الثقافة السائدة والمهيمنة، التي همها الوحيد، هو إغراق أفراد المجتمع المعاصر، في وحل المنتوجات الصناعة الثقافية، للبضائع الثقافية البراقة، التي هي بقدر غزارة هذا الإنتاج للصناعة الثقافية، بقدر ما تبعد الإنسان المعاصر، عن الانشغالات الحقيقية والاهتمامات الرئيسية للتغيير والتنوير وعليه فالفن الحقيقي والجمال المطلوب ،هو الذي لا تشده لغة الواقع الحسي شدا، بل هو الذي يتحرر من تلك الربقة الحسية أو الواقعية، ليرتقي إلى الجمال الحقيقي والمتميز ، جمالا يتميز بالحس النقدي السامي، وبالشعور السلبي الغير آبه بالسعادة الناتجة عن الوعد بالوصول إلى الحقيقة أو اليقين ، لأنه لا حقيقة تعبر عن الحقيقة الفعلية المنشودة، ولا فكر يعبر عن الفكر المطلق ولا علم يطرح من نفسه على أنه علم يقيني يصطبغ بالقداسة، وعليه فالفنان السلبي؛ أو الممارس للجمال النافي، هو ذاك الذي يشعر دوما ،بالقلق والحيرة والغثيان، من هذا العالم الموجود أمامنا، والمحفوف بالكثير من المشكلات والتناقضات والمفارقات . أن يوجد لذا لا يستطيع النسق الماركسي ،أو حتى النسق العقلي المثالي، أو النسق الوضعي، الذي ورث الجماليات الايجابية، أن يصمد أمام جدلية السلب؛ التي تبذر الشك والريب ،في مفاهيم النسق، والمعاني الايجابية التي يعتز بها ،ولا تستطيع تلكم الأنسقة السالفة الذكر؛ أن تبقى متسقة البنية، أو منسجمة النظام، أمام الأسلوب الشذري ،الذي يحيلها إلى خراب ودمار ، بعد في أعماقها الانقطاعات والمفارقات والتناقضات ،مما يجعلها غير منسجمة البناء؛ وغير متسقة القوام ، كما أن مهمة هذا الجدل السلبي ليس هو البناء بإيجاد أنسقة أخرى ومفاهيم ثابثة، بل هو يمتهن سلوك التهدم ،متخلصا بذلك من كل يقين ووثوقية ، وواضعا حد لكل نسق؛ أو نظام فكري متكامل ، حتى يكون العقل حرا ومستقلا بعيدا صنمية الفكر، التي تولد الأديولوجية وعقول السيطرة والتحكم كالعقل التماثلي والعقل الآداني .

المبحث الثالث : علاقة أدورنو بهوسرل .

حاول الفيلسوف ادورنو من خلال مقاله مينا نقد, تحديد فينومنولوجيا هوسرل بالاعتماد على نموذج ملموس؛ باعتبارها تشكل نظرية معرفية تروم التأسيس للحقيقة وفهمها. فـهدف ادورنو راديكالي بكل المقاييس: ما هو شكل ومحتوى الحقيقة الفلسفية في المجتمع الرأسمالي المعاصر؟ إذا كان واضحا لدى ادورنو، بان ما تراهن عليه الفلسفة هي الحقيقة؛ فهذه الأخيرة يجب أن تستعمل بالاعتماد على الظروف الحقيقية لمجتمعاتنا وأنظمة الفكر التي تعبر عنها، إذ نجد أن التيار الفكري الرئيسي.[1]

يعبر عن فينومنولوجيا هوسرل لأنها تسمح لنا بمعرفة كل التيارات الفلسفية الأخرى السائدة في القرن العشرين. بعبارة أخرى الموقف الذي أخده أدورنو من فنومنولجيا هوسرل هو نفس الموقف الذي أخده النيو كانطيين من كانط :بمعنى / كيف يمكن الخروج من نموذج فلسفي غير قادر على التجديد وفارغ معرفيا منطلقه التأسيسي؟

وكما خضعت فلسفة كانط للنقد فكذلك تحتاج فلسفة هوسرل إلى نقد النقد لتطوير الفلسفة في أفق تشكل معنى جديد للواقع. يعتبر ادورنو فلسفة هوسرل نموذجا فكريا حقيقيا يمكنه الاعتماد عليه للتأسيس لنقد الجدل فهذه العملية تسمح له بتوظيف مفهوم النقد المحايث الخاص بهوسرل في تحديد مفهوم الحقيقة من خلال اللاحقيقة. فالجدل باعتباره نقدا محايثا يفرض على الفنومنولوجيا تأكيد على لا حقيقتها التي تحول إلى حقيقة بالنقد وبالتالي إلى مفهوم.[2]

تعرضت فينومنولوجيا هوسرل إلى نقد كبير حيث تعرف تناقضا كبيرا وليس كونية مجردة وهكذا أصبحت الفينومنولوجيا هي المحرك لمفاهيم الجدل، فالمنطلقات الجدلية تسمح بالكشف عن الافتراضات المضمرة للفئومنولوجيا باعتبارها تناقضات والتأكيد على شمولية مبادئها. هذا يؤدي بنا إلى تحديد النقطة الأولى لأي تحليل لاحق: الفرق واضح بين المنهج الفنومنولوجي والمنهج الجدلي، وعلى أساس هذا الفرق المنهجي الفلسفي حدد أدورنو عناصر مشروعه النقدي. إذن حسب ادورنو تعتبر فنومونولوجيا هوسرل أخر تمظهر قوي لبديهية معرفية قائمة على التحالف بين الفلسفة والرياضيات، فالفلسفة تمثل حالة النسق ككل باعتباره وحدة في حين أن الرياضيات تقدم له مبادئ اختزال الأشياء

[1]- نور الدين – المغرب علوش ، نقد ادورنو لفينومنولوجيا هسرل ، الموقع الالكتروني , www. asjp. cerist. dz/en/artivle/ 16631 تاريخ الدخول في الموقع : 22جوان 2022 ،ص 185.

[2]- المرجع نفسه ص 185.

إلى اقانيم. فالكائن في تمظهراته يصبح التعبير عن وحدة تجد سبب وجودها في مبدأ النظام العددي والاختزالي، فالأعداد تسمح لكائن باختزال تعددية الكائن إلى وحدة للفكر. فهذه الطريقة التي أسسها أفلاطون نجدها عند كل من ديكارت وهوسرل أي نجدها في الفلسفات (التي لها أولوية المنهج التي تزيل الفرق بين الموضوع والفكرة، على كل حال نجد فالفنومنولوجيا معنى جديد الأولوية المنهج يختلف عن الفلسفات السابقة؛ ذات صيرورة معرفية متجذرة في صيرورة اجتماعية ذات طابع هيمني. التأسيس الأسبقية المنهج يتزامن مع تشكل النموذج الرأسمالي للقيادة والتحكم بعبارة أخرى قدمت الفنومنولوجيا التبرير العلمي للهيمنة الرأسمالية حسب ادورنو،ففلسفة هوسرل لم تكن سوى ترجمة أمينة لعلاقات الملكية المجسدة للاغتراب لأنها تقيم حدودا بين الأفكار باعتبارها تمثل ملكيات حقيقية .فالعالم يتم بناؤه فنومنولوجيا من خلال مخطط تلاؤمي: الأفكار في خدمة المنهج مادامت تخدم الكينونة في ذاتها، لا تحدد الفلسفة الأولى الحقيقة انطلاقا من افتراضاتها المسبقة المضمرة دائما في مغلقة على نفسها ولا تنفتح إطلاقا. فالمبدأ الذي يحرك فلسفة هوسرل هو الانسجام بأي ثمن حتى لا تتعرض الأفكار لأي اضطراب، بهذه الطريقة فلسفة هوسرل لا تتضمن أية معرفة بل أصبحت الذراع الفلسفي ما للهيمنة الرأسمالية. فالصيرورة الاجتماعية عوضت إلى حد بالفنومنولوجيا وجدت كما هي بدون أن يحدث أي تعديل.[1]

فهدف ادورنو في مقاله ميتا نقد هو قلب المنطلقات الفومنولوجية من جهة لإبراز الدور الكبير الذي تلعبه في تأسيس العلوم الاجتماعية ومن جهة أخرى إثبات الطابع المركزي والمحدد للعلاقات الاجتماعية في التأسيس لآية ممارسة فلسفية مثل الجدل. وعلى مستور صعود الكائن الاجتماعي يتبن الفرق بين الجدل والفنومنولوجييا.: إذا كان الأول ينطلق من منطلقات مادية من علاقات الإنتاج، فان فلسفة هوسرل تستدمج في المنهج بصورة مجردة الشكل الصافي للتنظيم؛ غاضة الطرف عن المضمون الاجتماعي المقصي فانطلاقا من هذه المقدمات الراديكالية حاول ادورنو الكشف عن تناقضات فلسفة هوسرل من اجل الوصول إلى استكناه المنطق واستنطاقه ؛ لان "اذا كان تفسير العالم قد تطور فالآن يجب تغييره، ومادامت الفلسفة في استراحة, فان المفاهيم ستتجمد وتتحول إلى صور. فالآن وقت ليس وقت الفلسفة الأولى بل الأخيرة".

[1]- نور الدين – المغرب علوش ، نقد ادورنو لفينومنولوجيا هسرل ، الموقع الالكتروني , www. asjp. cerist. dz/en/artivle/ 16631 تاريخ الدخول في الموقع : 22جوان 2022 ،ص 185.

فالهدف الأساسي من نقد ادورتو لهوسرل هو إبراز العلاقة بين وضع المنطق ونظرية المعرفة والتأسيس للكائن الاجتماعي، ففلسفة هوسرل آخر محطة من محطات اختزال الفلسفة إلى علم الذي بدا مع كانط. فكل فلسفة تحتذي بالعلم ، فهي خاضعة لتقسيم العمل : بعبارة أخرى تعمل الفلسفة على إعادة إنتاج المقولات الاجتماعية الان العلم يعتبر المعرفة الفكرية هي مجرد تأملات مجردة علاقات الإنتاج تقدم للعلم المواضيع ونماذج البحث فهي تنشئ الحقول المعرفية وتضع الحدود بينها. السوق هو من يقدم للعلم أدوات البحث والمعطيات وبالتالي تمثل العلوم مجموعة من الوظائف الثابتة والمفكرة للتنظيم الرأسمالي للعمل، في هذا السياق لن تقوم الفلسفة بدورما الا من خلال ما هو مخطط لها من طرف التنظيم الاجتماعي.فكل من يخرج عن سيطرة السوق يعتبر غير علمي إذن على عكس ما توخي هوسرل أصبحت فلسفته نموذج الخضوع للعلم فهي أصبحت تمثل العلم الحقيقي للفكر ومن خلال منهجيتها التي تمكننا من فهم العالم. فلسفته بحقيقتها الذاتية هي الضمان العلمي لتجربة منهجية. بعبارة أخرى حاملة رؤية حول كلية الموجود أخذة بعين الاعتبار معرفة عالمية لما هو حقيقي, فهذه الانطلاقة التأسيسية تشبه إلى حد ما إقامة نموذج قوي ومتماسك للحقيقة ومن خلاله يتضح التالف القوي بين الفلسفة والعلم. من خلال هذه الافتراضات المنهجية, حاول ادورنو توجيه سهام النقد للاطلاقية المنطقية لهوسرل، من اجل إبراز العلاقة الضيقة التي أقامها مع تشيؤ علاقات الإنتاج. أولا التصور الهوسرلي للمنطق يقوم على التراث المعرفي للعلوم باعتباره جهاز مراقبة، ثانيا اطلاقيته المنطقية هي انعكاس لفيتيشية العلوم بعبارة أخرى الفصل بين المنهج العلمي والتأسيس الاجتماعي للكائن، فمعطى الوعي الخاص الماقبلي للفينومنولوجيا فهو محددا مسبقا كهدف علمي، فهو لايحتاج إلى تبرير متعالي لأنه مضمون في موضوعيته العالمية، لهذا السبب حاول ادورنو إثبات ان مشكل الفنومنولوجيا لا يكمن في التحقق من إمكانية العالم بل كيف تحقق هذه الإمكانية. فما يهم هوسرل ليس الإشهاد على حقيقة العالم بل عليمة الحقيقة، فهذه الأخيرة هي ما يجب وصفها علميا، فمهمة الفلسفة هي استيعاب عبر الإدراك القصدي للكائن في ذاته منطقيا الذ ي لا يختزل والمؤسس على اطلاقيته، فالمنطق أصبح افتراضا انطولوجيا معزولا عن اية حركة قادرة على مده بقوة إنتاجية : فطابعه الشكلي هي النتيجة لتشيؤه بمعنى آخر أن المنطق يتعامل مع مواضيعه بغض النظر عن محتواه وشكله؛ معتبرا إياها هويات خاصة متكافئة وغير قابلة للتبادل تتمسك فقط بالشكل, فالاطلاقية المنطقية هي النتيجة للتشيؤ المعد أثناء اللحظة التأسيسية للموضوعية .

فمنطق فلسفة هوسرل لا يعتبر التقاطع الإنتاجي الذي حسب ادورنو هو أساس كل معرفة،فالحقيقة الفلسفية يتم تحديدها انطلاقا من الترابط المنهجي بين الذات والموضوع بين حركة الموضوع المفتوحة والفعل المؤسس للحكم. ولا يمكن بأي حال عزل لحظات مؤسسة للحقيقة لان الحقيقة هي حقل قوى والمنطق ليس هو الكائن في ذاته بل هو جدلية بين الذات والموضوع، فالحكم الفلسفي لا يفارق التكون والتوتر المحايث لأي ديناميكية حقيقية للحظات التأسيس. من هنا يؤكد أدورنو بان التكوين بتضمنه المنطق لا يعني ان هناك نشاط بسيكولوجي،فهي سلوك اجتماعي، في المنطق نجد دائما الشروط الموضوعية للحقيقة الاجتماعية التي تتجاهلها الفينومنولوجيا بعدم إدماجها: هذا يعني أن الكائن الاجتماعي تم تحويله حالا إلى الحقيقة وموضوعيته تم تحويلها إلى موضوعية فكرية بإلغاء ثنائية الذات والموضوع تتخلى الفنومنولوجيا عن معرفة الحقيقة الاجتماعية، تصبح في الأخير عبارة عن نسخ شبيهة محرومة من القوة والتوتر التأملي. من هنا يتم النظر إلى العالم بنظرة لا مبالية وشكية بدون اعتبار للأصل الاجتماعي والصراعي لأفعاله المعرفية، وبالتالي فمحتويات الوعي يتم قبولها كما هي معطاة من طرف النظام القائم. لكن ادورنو يؤكد على أن الفكر يتطلب ذاتا وتصورا للذات :هذا يعني بان المعرفة يجب أن تعتمد دائما على اللحظة الإنتاجية والمحددة للذاتية التي لايمكن اختزالها من الأنا القصدي الفنومنولوجي إلى الأنا الهوياني المتعالي إلى نفسه ؛ لكن على العكس فهو حصيلة منتجة بين العرض التأملي والاختلاف غير قابل لاختزال للموضوع. ما يجري في العالم ليس هناك من حياد ومباشرية ، فالتفكير في الموضوع: يعني أولا تحديده ثم تحويله إلى صيغة أخرى العمل المعرفي يغير من المعطيات الذي يؤسس توسط جدلي بين الموضوع المهيأ حالا وتصوره للمفهوم على عكس ما يجري في الفنومولوجيا حيث المنطق اخد دور نظرية المعرفة فان الجدل الذي يقترحه ادورنو يعتمد على الصيرورة التركيبية للتجربة ؛ فالبنية السكونية للمنطق الهوسرلي يكشف عن نقص الذاتية .فالأنا الفنومنولوجية هي ذات غير منتجة وبسبب أنها معزولة عن التوسطات الحقيقية للكائن الاجتماعي وجمعنة علاقات الإنتاج، في حين أن الجدل يتناسب مع تناقضات الاجتماعية في أفق تغييرها ،أما الفنومنولوجيا فتقف أمامها بصورة حتمية ولا تكلف نفسها عناء التغيير. فالعلاقات الاجتماعية لا تؤثر على المنهجية الفلسفية حسب هوسرل بل بالعكس الفنومنولوجيا هي التي تثبت حالة الاستغلال الرأسمالي. فنقده المركزي لادورنو الموجه ضد هوسرل هو كالتالي: اتجاه هوسرل نحو تشيؤ لما هو معطي مرتبط بتدمير ..... في المجتمع البرجوازي

المتقدم وتعويضه بمفاهيم جوفاء خادمة لاتجاهه، فقدان التجربة الحقيقية يتناسب مع القوة المتزايدة لإنسان الحديث. الفنومولوجيا تمثل الفنومنولجيا تمثل حسب ادورتو آخر جهد فارغ للفكر البرجوازي لتفادي هذه القوة المتزايدة نفسها لكن هناك ما هو خطير بديهية الهوية والمباشرية المطلقة يمكن أن تؤدي إلى هيمنة سياسية لايدولوجيا مطلقة.هناك خط مهم بين الفنومنولوجيا والفاشية الأنهما في النهاية تعبير واحد عن أزمة المجتمع الرأسمالي. الطابع المنطقي والشكلي لفنومنولوجيا أخر محاولة للفكر المعاصر التقديم صورة عن العالم متجانسة ومتداخلة لتنفيذ تصور عالمي للمعرفة. لكن هذا الأخير ليس غير قادر على إنتاج المعارف؛ لكن يقدم لاديولوجيات الهيمنة تبريرا فلسفيا. إذن ما هي الحجة المضادة للفنومنوجيا للخروج من هذا النموذج وتأسيس نموذج جديد يرتبط بالبراكسيس؟ كما ترون هذا ما طرحه أدورنو في مقاله مينا نقد.الجواب يكمن في جدل مادي وبعبارة أخرى الجدل الذي يحدد محتوى التجربة في التوسط الإنتاجي بين الذات والكائن اجتماعيا، فقط التأمل الذاتي الاجتماعي للمعرفة يتناسب معها. "فنقد المجتمع هو نقد المعرفة والعكس صحيح ", وفي نفس الوقت "فمحتوى التجربة الشخصية لا يقام بمساعدة المنهج التعميم المقارن لكن بإذابة ما يمنع هذه التجربة من التخلي عن الموضع بدون تحفظ ،فالمفتاح الأساسي للذات في المعرفة في التجربة وليس الشكل. فما سماه كانط بالتأليف فهو ليس كذلك. فالمعرفة هي تهديم لتراثها القديم وتدمير للعنف الممارس على الموضوع. فالذات تمزق الحجاب الذي يطوق الموضوع من خلال معرفته. فالذات لن تتمكن من فعل هذا مادامت تخلت بطواعية وبدون إكراه عن تجربتها الشخصية "فأمام العمل الذي تقوم به الذات في وجوده الاجتماعي يمكن تقديم معرفة فلسفية منتجة. فالهدف ليس الحالة السكونية لنظرية المعرفة بل وضع الكائن في حركة جدلية لتأسيس محايث للعلاقات الاجتماعية. فهذا الفعل مقدور عليه من طرف الفعل المعرفي للذات الجدلية التي تنفتح على مختلف تاليفاتها وتطوراتها لتشكيل حقل قوى الا يستهدف الهوية المجردة لثنائية الذات الموضوع؛ لكن بالأحرى الإبداع الدائم للمفاهيم ولتقاطع للامادي للخطابات والإنتاج الاجتماعي للمعرفة. إذا أمكن لنا تصور دولة خارج التصالح ، لن نتمكن من رؤية لا الوحدة الاختلافية للذات والموضوع ولا الحجة المضادة الراديكالية: سنرى فقط لعبة الاختلافات. إذن فقط مفهوم التواصل باعتباره هدفا يمكن أن يجد مكانه فالعلاقة بين الذات والموضوع تأخد مكانها

الحقيقي حتى ابستمولوجيا في سلام حقيقي دائم بين الأفراد فيما بينهم وبين الآخرين أيضا، السلام هو حالة الاختلاف بدون هيمنة, حيث يمكن للاختلاف أن يعبر عن نفسه.[1]

[1]- نور الدين – المغرب علوش ، نقد ادورنو لفينومنولوجيا هسرل ، الموقع الالكتروني , www. asjp. cerist. dz/en/artivle/ 16631 تاريخ الدخول في الموقع : 22جوان 2022 ،ص 191.

المبحث الرابع: علاقة أدورنو بفرويد .

لعب الفكر الفرويدي دورًا مركزيًا في أعمال هربرت ماركوز وماكس هوركهايمر ومؤخرًا يورغن هابرماس حيث كان لمنهج التحليل النفسي لـ "فرويد" تأثير على "مدرسة فرانكفورت"، ومن القضايا التي ناقشتها: موقع الجنس في آليات الإغراء الحديثة وعلاقتها بالعملية الانتاجية، والمعاني الجديدة التي يتخذها الحب، لذا اتخذوا من التحليل النفسي منهجا ضروريا لتحليل المشكلات الفردية التي برزت في المجتمعات الصناعية الرأسمالية، بقصد تشخيصها وإيجاد الحلول لها , ففلاسفة النظرية النقدية بعد معاينتهم لانحطاط القيم الفردية داخل المجتمع الصناعي المتقدم، ومن انسحاب لحق الفرد في الاختلاف داخل النظام الفاشي أولا، وفي تراتبيات النظام السياسي« المغلق» للمجتمع الصناعي ثانيا، حاولوا إعمال العقل لإعادة الاعتبار للفرد ولتنشيط الفكر النقدي. وانطلاقا من هذا الاهتمام عملوا على إعادة قراءة النص الفرويدي على ضوء تحولات المجتمع الصناعي متسائلين عن دلالات الرغبة والتصعيد اللاشعوري وموقع الجنس في آليات الإغراء الحديثة وعلاقتها بالعملية الإنتاجية وعن المعاني الجديدة التي يتخذها الحب [1] لكن لم يتأثر أحد منهم بنتاج فرويد أكثر من ثيودور أدورنو.

إن رواد مدرسة فرانكفورت من الجيل الأول قد تأثروا بمفاهيم علم النفس ونتائج أبحاثه، وتوظيفها في مختلف دراساتهم ونجد في مؤلفات هؤلاء الرواد إشارات واضحة إلى هذا الأثر[2]، يقول هوركهايمر وأدرنو " تبعا لنظرية التحليل النفسي فهناك ثمة إسقاطات، وإن حصول الإسقاط المرضي مرتبط بتحويل الفرد نزواته على المواضيع، النزوات المحرمة على المجتمع تحت ضغط الأنا الأعلى، يُسقِط الأنا على العالم الخارجي كنوايا سيئة النزوات العدوانية التي تأتي من الهو، وبذلك تنجح بالتخلص منها كردات فعل تجاه العالم الخارجي "[3]

كان أدورنو فرويديًا أرثوذكسيًا. أيد نظرية الغريزة، على النقيض من المحاولة "التحريفية" لإريك فروم وكارين هورني، اللذان وصما فرويد بالحتمية البيولوجية. ولكن أيضًا أختلف عن فرويد في اعتقاده أن فرويد يميل إلى اسقاط انهيار الواقع الخارجي في العالم نفسي. حتى هنا، على أية حال، ظل أدورنو دائمًا مؤيدًا ومدافعًا عن العقيدة الفرويدية الأرثوذكسية –التحليل النفسي في شكله الصارم–

[1]- نورالدين بوزار، المرجع السابق ص55 .
[2]- المرجع نفسه 56.
[3]- ماكس هوركهايمر، ثيودور أدورنو: جدل التنوير، ترجمة جورج كتورة، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت ، لبنان، 2006، ص 225.

وهاجم إريك فروم ولاحقًا كارين بسبب تحريفهم, وابدى تحفظات حول اختزاله إلى إجراء علاجي, على الرغم من أنه اعتبر أن تركة فرويد النفسية أخطأت حين قللت من أهمية العوامل الاجتماعية، إلا أنه اعتبرها صائبة في جزء منها حيث أنه في ظل الرأسمالية المتقدمة، يتم تقليص البشر إلى أحاديات منعزلة. بمعنى أخر، كان فرويد محقًا حتى عندما كان مخطئًا. على الرغم من أن الماركسية لعبت أيضًا دورًا حاسمًا في تطوير فكر أدورنو، إلا أنه يمكن القول إن السمات الرئيسية لنسخته من النظرية النقدية كانت فرويدية. لم يغيب عن أدورنو حقيقة أن كل كائن هو نتاج التاريخ وأن الوضعية تلعب دورًا نشطًا في اكتساب المعرفة. من الواضح أن هذه الفكرة تتلاءم جيدًا مع فكر التحليل النفسي، الذي، بينما يرث بعض المبادئ التجريبية والمادية من القرن التاسع عشر، يعتبر تأويليًا في تطبيقه السريري ويلتزم بمفهوم غير وضعي للحقيقة.

المطلوب من المحلل أن يتدخل بنشاط ويدرك أن الموضوعية لا يمكن تحقيقها إلا ذاتويًا. وبالمثل، في منهجية النظرية النقدية، يتم ملاحظة الموضوع من وجهة نظر داخلية جوهرية، وليس من منظور متسامي مثل الذي يتبناه العلم الاجتماعي المعرفي. هذه هي بالضبط وجهة نظر التحليل النفسي، الذي يهدف إلى جعل المحددات الاجتماعية للأمراض الفردية واعية من خلال البحث عن تلك المحددات ليس في العالم الخارجي ولكن من خلال الأثر الذي تتركه على الحياة النفسية والعاطفية للمريض. أحد المبادئ الأساسية للنظرية النقدية هو المبدأ القائل بأنه في ظل الظروف الاجتماعية الحالية، لا يمكن لأي توليف بين الذات والموضوع أن يوحد تطلعات الفرد إلى السعادة وضرورات المجتمع. يتوافق مبدأ النظرية النقدية هذا بشكل وثيق مع فكرة فرويد عن الصراع الذي لا يمكن التغلب عليه بين الرغبة والكمال, بين متطلبات الغريزة ومتطلبات الحضارة. تظهر أوجه التشابه السابقة أن كلا من نقد أدورنو للثقافة ونظريته عن الشخصية مدينان بالكثير للفكر الفرويدي إن البنية الاقتصادية للمجتمع تؤثر هي أيضا في ما تبقى من حرية جنسية. ونحن نعلم أن الحضارة ترضخ في هذه النقطة للضرورات الاقتصادية، ما دام يترتب عليها أن تحرم من الحياة الجنسية ومن قدر كبير من الطاقة النفسية لتستخدمه في أغراضها، وقد تكشفت حضارتنا الأوربية الغربية على أنها قطعت مدى كبيرا في هذا التطور.[1] استند نقد أدورنو إلى نظريتين من نظريات التحليل النفسي: الهوية والإسقاط. من خلال محاولة تحديد الهوية، يستوعب الفرد الأب، وبدائله الرمزية، وفي التحليل النهائي،

[1]- كمال بومنير، مسألة العقلانية التكنولوجية في فلسفة هربرت ماركيوز ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، اشراف د محمد بلعزوقي،جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007/2006 ، ص 53.

يستوعب المجتمع ككل. في الإسقاط، يسقط الفرد على العالم الخارجي العواطف التي تكتنفه والأفكار. لا تعتبر أي من هذه الآليات مرضية في جوهرها, لأن تعريف الهوية أمر ضروري للاندماج الاجتماعي للفرد؛ والإسقاط ضروري لاكتساب الفرد للمعرفة، والتي تنشأ من استيعاب بيانات المعنى، وتحليلها من خلال التفكير الذاتي، وتحويلها إلى أفكار حول الواقع الخارجي. كل هذا يتغير في الحالة الحالية للرأسمالية أو بشكل عام في المجتمع الصناعي. بينما في المراحل المبكرة من التطور الاجتماعي، أتاح تحديد الهوية للأفراد هامشًا من الاستقلالية, حيث تستوعب الذات فيه نموذجًا اجتماعيًا يخلق قدرًا أكبر من الاستقلالية، ويتم تحقيق التنشئة الاجتماعية من خلال الأسرة التي يمكن أن تنتج أفرادًا أحرارًا, ولكن الأن يتم تحقيق ذلك بشكل مباشر من خلال النظام الاجتماعي، من خلال المجتمع الصناعي، بهدف إنتاج توافق اجتماعي يتم فيه محو الفردية. وبالمثل، لم يعد الإسقاط أداة لإنتاج معرفة مفيدة بالواقع لأن نفس المطالب الخاصة بالامتثال التي تُخضع الفرد مباشرة للمجموعة جعلت عملية التفكير الداخلي التي يتم من خلالها معالجة الحقائق حول العالم غير ضرورية. نتيجة لذلك، لا يُظهر الإنسان الحديث سوى الاستياء والغرائز المدمرة والفراغ الداخلي، مما يحول العالم إلى نظام اجتماعي مصاب بجنون العظمة مليء بالمؤسسات العدائية. حقق أدورنو نجاحًا أخر بمساعدة فرويد في نظرية الشخصية. واضعًا أفكاره في عمل ألفه مع العديد من الزملاء, وهو الشخصية السلطوية (1950) ، كانت دراسة تجريبية حاولت شرح العلاقة بين بنية الشخصية ووجهات النظر المتعلقة بالمشاكل الاجتماعية والسياسية. كانت الفرضية أن الأشخاص الذين لديهم هيكل شخصية استبدادي، كما تم قياسه باستخدام متغيرات التحليل النفسي، هم أكثر عرضة للاعتراف بأفكار سياسية رجعية، في حين أن الأشخاص غير الاستبداديين هم أكثر عرضة للاحتفاظ بآراء ليبرالية. وتحت دهشة المؤلفين الكبيرة, لم تتحقق تلك العلاقة المتوقعة، لأن العديد من الأفراد الاستبداديين كانوا ليبراليين والعديد من الأفراد غير الاستبداديين كانوا رجعيين.

اقترح أدورنو تفسيرين محتملين لهذه الحالة التي تتسم بالتناقض. أحدها أن البيئة الاجتماعية "البيئة الثقافية العامة" تشكل كل فرد فيها، بشكلٍ مستقل عن هياكل الشخصية الفردية، مما يتطلب من الجميع اعتناق قيم النظام القائم. كان تفسير أدورنو الآخر، وفق منظور التحليل النفسي الأرثوذكسي، أن الأفراد الليبراليين أو المستبدين المحافظين يتماهون بشكل غير كامل مع آبائهم، ونتيجة لذلك يكون سلوكهم خاضعًا ولكنه متمرّد في آن واحد ومطيع للسلطة ومع ذلك عدائي. يُترك المرء إما مع

الليبراليين الزائفين، الذين تُنكر آرائهم التقدمية من خلال الميول الهدامة الراديكالية، أو المحافظين غير المؤمنين، الذين هم في جوهرهم فاشيون وليسوا مؤيدين حقيقيين للوضع الراهن. والعكس صحيح بالنسبة للأفراد غير السلطويين. في هؤلاء الأفراد، يؤدي الصراع الأوديبي إلى موقف ملائم تجاه السلطة. هؤلاء الأفراد ليبراليون في التطلع إلى تغيير حقيقي لكنهم محافظون في الرغبة في الدفاع عما هو أفضل في التقاليد. ربط أدورنو كما هو واضح مكونات نظريته النقدية باستخدام أدوات مفاهيمية مستعارة من فرويد أين يقول« تبعا لنظرية التحليل النفسي فهناك ثمة إسقاطات. وإن حصول الإسقاط المرضي مرتبط بتحويل الفرد نزواته على المواضيع، النزوات المحرمة على المجتمع. تحت ضغط الأنا الأعلى، يُسقِط الأنا على العالم الخارجي كنوايا سيئة النزوات العدوانية التي تأتي من الهو، وبذلك تنجح بالتخلص منها كردات فعل تجاه العالم الخارجي.» .[1] قد تبدو مثل هذه التحليلات عفا عليها الزمن من وجهة نظر الفكر التحليلي المعاصر، لكنها تُظهر الخصوبة المثيرة للدهشة والمستمرة للتحليل النفسي من أجل فهم أفضل للمجتمع الحديث وما بعد الحداثي .

[1]- ماكس هوركهامبر، ثيودور أدورنو، المصدر السابق، ص225 .

الفصل الثاني

في نقد المجتمع الغربي المعاصر

المبحث الأول: اليات السيطرة في المحتمع الغربي المعاصر.

المبحث الثاني: المفاهيم الأسطورية المسيطرة على الثقافة الغربية.

المبحث الثالث: الصناعة الثقافية وأشكال السيطرة في المجتمع الغربي.

المبحث الاول : اليات السيطرة في المحتمع الغربي المعاصر

مع تزايد الإنجازات الكبرى التي حققها العلم نتيجة التطبيقات التقنية للنظريات العلمية، نشأ توجه إيجابي عام – في القرن العشرين يمجد العلم، ويعلي من شأنه، ويعده أمل البشرية في تحقيق حياة مثالية، طالما سعى الإنسان إليها منذ زمن طويل . فالتقنية اليوم، أصبح لها دور كبير في تقدم المجتمعات، وزيادة سيطرة الإنسان على الطبيعة وثرواتها، ورفع قدرته على النهوض في مختلف المجالات الصناعية، والزراعية، والنقل... الخ. فالعلم اليوم "يقدم جواباً لكل شيء"، شيء"، والتقنية أصبحت تمنحنا" حلولاً لمجمل المشكلات المطروحة علينا ."هذا التحمس الشديد للعلم ومنجزاته، تمثل وتشكل في تيار واسع أصبح يسمى بـ "الوضعيةPositivism "أو "التقنويةTechnicism "أو"العلموية". وتقوم هذه العلموية على "تصعيد العلم بجعله جوهرا مكافئاً لإيمان جديد يقدم جواباً لكل شيء"، وعلى توقع من العلم الحديث بأن يجعلنا "سادة الطبيعة وملاكها". لدرجة أن شخصاً مثل ماكس فيبر أخذ مفهوم "العقلانية" وأطلقه على المجتمعات التي تزيد من اعتمادها على العلم والتقنية، وتوسع من استخداماتها في المجالات كلها لتحقيق مزيد من التقدم والرفاهية. فالمجتمع العقلاني – بحسب فيبر – هو الذي يحول العلم والتقنية إلى مؤسسات فاعلة تبني الحياة الاجتماعية "بطريقة دنيوية"، لتحريرها من الموروث الثقافي المثالي. وبذلك يكون فيبر، فضلا عن الاتجاهات العلموية، من المسؤولين عن توطيد السيادة الأيديولوجية للعلم على المجتمع، دون أي انتباه لما للعلم والتقنية من قدرة للسيطرة على النظام الاجتماعي، وإعادة تكوينه بما يتناسب ومتطلبات التقنية ومصالحها[1] والمشكلة في هذه السيطرة للتقنية أنها لا تظهر بمظهر اللاعقلاني، ولا تنعكس في مرآة السياسة. فالسيادة التقنية هي نوع خاص من السيادة، فهي ليست قمعية واضحة، ولا استغلالية مباشره، ولكنها في الوقت نفسه قوية، وفعالة، وغير مرئية. وهي تتمثل في الأعباء التي تلقيها على كاهل الأفراد، وفي الإخضاع المكثف للأفراد لجهاز الإنتاج، والتوزيع الجبار، وفي سيطرتها على وسائل تشكيل الرأي، وتوجيه السياسة، ناهيك عن إلغاء خصوصية الإنسان وتضييق الخيارات لديه إلى أقل درجة ممكنة .[2]

إن نقد العقل التنويري الغربي عبر مراحله التاريخية أشبه بنقد الجدلية التاريخية لكارل ماركس وهيغل خاصة، والتي تترجم صيرورة الإنسان الاجتماعية عبر التاريخ، وهو في ذلك يتعرض بصورة جدلية سلبية

1- محمد سباع ، النقد الفلسفي للعلم و التقنية عند مدرسة فرانكفورت،"هابرماس " نموذجا , مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، اشراف د بعنون حدة، جامعة البويرة ، قسم الفلسفة ، السنة الجامعية: 2017/2016، مقدمة "ب"

2- المرجع نفسه ، "ج"

متحررة من أية أيديولوجية متزمتة، أو صناعة ثقافية أو رسملة فكرية، وصولا إلى فضح هيمنة الثقافة الغربية وقهرها للفرد الذي ينتمي إليها وللمجتمع الغربي، والمحتوي في نسقها الفكري وإطارها الأدائي، حيث تبقى هذه الهيمنة والقهر في لاشعور الأفراد الجمعي ؛ليس هذا فحسب بل محاولة مد هذه الهيمنة والسيطرة إلى باقي أفراد و شعوب الدول الأخرى من المعمورةوفرضها بالقوة، وهذا المسعى المهيمن تمارسه الثقافة الغربية منذ بداية التاريخ الإنساني ،حيث يستعرض أدورنو بصورة نقدية حرة وجريئة، هذا التمرحل الجدلي، للعقل الغربي التنويري؛ الذي تمثله الثقافة الغربية، في صيرورتها التاريخية،مكرسة في كل مرة،أساطير من وحي عقلها التنويري المزعوم . وموهمة بأن هذا التطور حتمي ،وأن هذا المسار ضروري للمرور إلى أرقى درجات التطور والتحضر ،الذي تنعم فيه شعوب تلك الدول بالتقدم والرخاء، وتشملها الرفاهية والسعادة والعيش الرغد ،فارضة بذلك منطقا؛ يحيل إلى تدجين هذه الشعوب ،وإدماجها قسرا ،ضمن حضارة القهر والسيطرة بأشكال مختلفة. [1]

لقد انطلق مشروع التنوير مع ادورنو وهركهيمر من خلال كتبهما جدل التنوير أين تناولا فيه مفهوما عامة للسيطرة التي عاشها الانسان عبر العصور المختلفة وصولا الى السيطرة بمفهومها الحديث فقد كانت افكارهما مشروعا لنقد الثقافة الجماهيرية .

ويمكن الحديث هنا عن حول مفاهيم للسيطرة كما يحددها أدورنو حيث يقول كل من هوركهايمروأدورنو، في كتابه جدل التنوير في تبيان السيطرة بين السيد والعبد :" لم يعرف البدائي الطبيعي إلا بشكل موضوع يختلس رغبته، إلا أن السيد الذي جعل العبد بينه، وبين هذا الشيء، لا يرتبط من هذا المنظور بالشيء بوصفه مستقلا وله حق الكفاية الكلي،أما وجه الشيء بوصفه مستقلا فهو يتركه للعبد الذي يعمل عليه...،مع أنه لا يستغرق في تجربة التخلي عن نفسه،فهو يرفض في نهاية الأمر وصفه مالكا المشاركة في العمل،أو لتوجيهه في لحظة أخيرة، أما رفاقه وبمعزل عما يقرهم من الأشياء، فهم لا يستطيعون الاستفادة من العمل لأنهم يؤدونه إكراها دون أمل وباستبعاد كل معاني القوة ، يظل العبد مستعبدا جسدا وروحا"[2] ، وعليه يشعر العبد بأنه غريب عن عمله وعن الإنتاج ،لأنه لا يستفيد منه بصورة مباشرة، بل يستفيد منه السيد بدون بدل جهود تذكر، وبدون تعامله الأشياء الطبيعية مباشرة بل لان السيد جعل العبد وسيلة أو واسطة بينه وبين العالم الطبيعي الخارجي، فيخضع بذلك العبد للاستغلال الجسدي والظلم

[1]- كادي قادة عبد الجبار ، الثقافة والجمال عند ثيودور أدورنو , مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير، اشراف سواريت بن عمر، جامعة وهران ، قسم الفلسفة ، السنة الجامعية: 2016/2015، ص 69،70.
[2]- ماكس هوركهايمر، وثيدور أدورنو، المصدر السابق ص ،57،58.

المعنوي المستمر،لكن في حقيقة الأمر السيد هو من يدفع الثمن باعتبار انه مستعبد من قبل قوى الطبيعة وقوانينها، وأن العبد هو من يقوم سيدا على الطبيعة المادية الخارجية وينصب من نفسه مسيطرا عليها وبالتالي مسيطرا على الطبيعة المادية الحسية ليس إلا."أما الإنسانية بتاريخها ومعرفتها،فقد تميزت من خلال تقسيم العمل، بإعادة القوة إلى مستويات أنثروبولوجية أكثر بدائية، وفي الوجود الذي صار سهلا بواسطة التقنية، نجد استمرار السيطرة قد فرض قمعا أكثر تشددا،الخيال بدأ يضمر، فحين تحول تطور الآلة ليكون آلية سيطرة،فان من ظلوا في الوراء لا يمثلون في الواقع اللاحقيقة فقط، علما أن التطور التقني والاجتماعي في كل زمان قد تحول لحبس الإنسان، بالنظر لأن التأقلم مع سلطة التقدم،قد تضمن تقدم السلطة، وبالتالي تكرار هذه النكوصات التي تبرز التقدم الفاشل"[1]، ومعنى ذلك أن "التقسيم الاجتماعي للعمل ، قد صاحبه اتخاذ معيار القوة والتسلط ،أساسا في علاقات التبادل بين الناس، وانه كلما تطورت الآلة رافقها تبعا لذلك تطور في استخدام القوة والتسلط ،لكنه هذا التطور كان في الوقت نفسه تهورا ،لأنه ببساطة كان تطورا نحو التخلف والتبعية العمياء ونفهم من ذلك أن أدورنو يشرح هذه الجدلية بين العبد والسيد ، بصورة سلبية حرة ومنتجة، تتميز بالحياد والاستقلالية، في الدراسة و النقد، فالسيد لا يتعامل مع الأشياء المادية، أو العالم الطبيعي الخارجي، ولا يعمل بجسده، ولا بعقله الخاص مع الطبيعة المادية، فهو في انفصال عنها، أما العبد فهو من يتعامل مع الطبيعة المادية الخارجية، فهو يعمل ويكد من أجل استخراج الإنتاج منها، ويرتبط بالأرض جسما وعقلا ، لكنه لا يستفيد من هذا المحصول المادي، بل يستفيد منه السيد فيجده جاهزا للاستهلاك والتبادل، فيخضع بذلك العبد المنتج الحقيقي للاستعباد المادي والمعنوي باعتباره مسخر كوسيلة إنتاج من قبل المالك السيد فهو المتسلط والمهيمن الأبدي، مما يجعل هذا الإنتاج فيما بعد غريبا عنه ،باعتباره موجه لإرضاء حاجات وغرائز المالك لوسائل الإنتاج، لكن من الوجهة الجمالية والفنية الفضلى، فان العبد الذي يتعامل مع الطبيعة الحسية المادية باستمرار ويغير من وجهها الخارجي الأعمى والأخرس والفج، بجعلها موضوعا له،فانه في الوقت نفسه يغير من عالمه الداخلي ومن مداركه وخياله،ويتذوق هذا العالم في أبهى صوره " .[2]

ليس هذا فحسب بل أضحت أداة مثلى لتلبية أغراضه وحاجاته، ولهذا أبدع تعابير ومصطلحات خاصة شكلت المحتوى الأسطوري الذي يبغي من خلاله إعادة قولبة الطبيعة، تبعا لنظرته وذوقه الجمالي لها ،وهذا بإعطاء الصبغة العقلية للطبيعة،وسيتغير طبقا لذلك هذا الإنسان من الداخل روحيا وعقليا وإنسانيا ،

[1]- ماكس هوركهايمر، وثيدور أدورنو، المصدر السابق ص ،58
[2]- كادي قادة عبد الجبار ، المرجع السابق، ص72.

فيصبح أكثر فهما لقوانين الطبيعة وأعمق فقها لصعوباتها ولأسرارها، وأفضل ذوقا لمعاني الحياة وتجارها، مما يجعله يتحرر من أخطار الطبيعة وقوانينها العمياء وصعوباتها المطروحة ، ويتلمس إشعاع التنوير عبر إطار الأسطورة كشكل من أشكال تعقل الواقع الذي يحياه ويعانيه، فيصبح السيد بحق هو العبد والعبد الفعلي هو السيد، لكن إذا استمر جهلالعبيد لدورهم المنوط بهم في تلكم الحياة الاجتماعية، ولأهمية وجودهم في المجتمع القائم فان هذا الجهل للدور والتخلف عن الركب التحرري، سيدهم سلطة الأسياد

المالكين للعبيد، بل ويبرر قهرهم والهيمنة عليهم، ويشيع المفاهيم المزيفة والخاطئة عن التقدم والتحضر ،من قبل السلطة نفسها،في حين أن من يتقدم فعلا هم السادة وأن المتخلف الوحيد هم العبيد" [1]

لقد كان للتطور التكنولوجي في العصر الحديث تحول مفهوم السيطرة لتشكل بعدا اخر عند المفكرين في تلك الفترة يشغله الصراع بين طبقة العمال وطبقة المنتجين في ظل التطور الصناعي هذا من الناحية العملية الواقعية أما من الناحية الفكرية والنظرية كان الصراع بين بين الاتجاه التجريبي والعقلاني :

ففي العصر الحديث كان الصراع على أشده، بين العقليين والتجريبيين ، هذا الصراع الذي بذر الجهود ، بعيدا عن الهدف الحقيقي المنشود للإنسان الحديث،فالتجربة كانت بدون إطار اجتماعي مناسب، وبدون فكر عقلاني يستدعيها ويفسرها، ومن جهة أخرى فالعقلانية التي مثلها كل من ديكارت وكانطوهيغل،كان هدفها الرئيس هو صك لمفاهيم الهوية والتطابق والوضوح والنسق والكليانية والمطلقية، مما جعلها تعبر عن إيديولوجية معينة قاهرة،بل أن كل من الاتجاه التجريبي والاتجاه العقلي كانا تعبيرا عن عقل موجه ومسيطر، في يد الفلسفة البورجوازية ،إما باسم التقنية المهيمنة، التي تحولت عقب الثورة الصناعية الكبرى، وما تمخضت عنه من اكتشافات واختراعات ؛ إلى عقل أداتي مسيطر ومسير قسريا للأفراد والمجتمع، باسم المؤسسة؛ وهذا نحو هدف ما، يستهوي فئة معينة، مهيمنة من هذا المجتمع، ويخدم أديولوجيتها ،ويكرس صناعتها الثقافية، والتشجيع على التبضيع الثقافي ،الذي يلمع صورة تلك الإيديولوجية، ويضمن بقائها و استمراريتها، والتي حصرت العقل إما في العقل التماثلي المطلق، وإما في العقل الأداتي. [2]

وقد كشف كل من هوركهايمروأدورنو، في كتابهما جدلية التنوير عن بعد اخر لهذه السيطرة والتي تظهر في العلاقة الجدلية داخل النظام الرأسمالي بين العمال واصحاب رؤوس الأموال ، حيث يصرحون بقولهم"

[1]- كادي قادة عبد الجبار ، المرجع السابق، ص73.
[2]- المرجع نفسه ص 74.

بعد عقلنة أنماط العمل الحد الكيفيات وتحويلها إلى وظائف من الدائرة العلمية إلى دائرة المعاش مع الميل لتقريب الإنسان إلى حالة الضفدعيات. وحين نقول في أيامنا بأن حالة الجماهير إلى تراجع، فذلك يسمعوا بآذانهم ما لا يعرفونه وأن يلمسوا بأيديهم ما لم يسبق لهم لمسه : إنه شكل العمى الجديد الذي أخذ مكان الشكل الأسطوري المنتصر . وبتوسط المجتمع الكلي الذي استثمر كل العلاقات وكل المشاعر، يعود الناس إلى ما كان قانون التطور في المجتمع قد انقلب ضده، مبدأ الأنا .فالمجذفون الذين لا يستطيعون الكلام فيما بينهم إنما يطيعون الإيقاع نفسه، تماماً كالعمال الحديثين في المصنع، في السينما أو في الجماعية. إنها الشروط الآنية للعمل في المجتمعات التي تستدعي لا التأثيرات الواعية التي تجعل من الناس حمقى أو تبعدهم عن الحقيقة . عجز العمال لا يستخدم حجة من قبل القادة، بل هو أيضاً النتيجة المنطقية في المجتمع الصناعي، حيث تحول فيها القدر القديم في الجهود المبذولة من أجل التخلص منه". [1]

إن السيطرة التي هي الأداة والانعكاس، يمكننا إذا التشكيك بحقيقتها ووضوحها،...،وحين يصبح الناس يتشيأون في قوانين ونظام اقتصادي تجاري،صار لابد من وضع حدود سيطرة،وأداة السيطرة صارت مستقلة:فالعقل كجهة متوسطة قد لطف من عنف الظلم دون تدخل إرادة الحكام وعلى أدوات السيطرة من لغة وسلاح وآلات،صار لابد من فهمها من قبل الجميع، وهكذا صارت لحظة العقلانية التي تفترضها السيطرة قد تأكدت من خلال لامبالاته بالسيطرة،وان الآلة مع إفادتها للإنسان،فهي تقوم ببتره،وفي ظل شكل الآلة يتطور العقل المنشيء نحو مجتمع يصالح الفكر المتجمد في التجهيز المادي والفكري، مع ما يعيش حرا مرسلا"[2] ونفهم من طرح كل من هوركهايمروأدورنو" أن ما يميز المدنية الحديثة والمعاصرة هو تكريسها لآليات التبعية و ميكانيزمات التسلط و الهيمنة الفكرية والتقنية والعلمية،حيث أضحى العقل كقواعد فطرية ومبادئ كلية وضرروية ،منحازا أي غير مستقل ،باعتبار أصبح يسخر من قبل السلطة في خدمة أهدافها البعيدة الغير معلنة والغير ظاهرة للعيان،كما برر هذا العقل نفسه، جميع الوسائل ،والاستراتيجيات،والتقدم،من أجل إدامة عمر هاته الإيديولوجية والإبقاء على نمط السيطرة ،وطبيعة الهيمنة،بشكل غير مرئي وغير مجسم،لكن في الحقيقة أمعنت في إطفاء نور العقل الفطري .كما أن إبداع هاته الإيديولوجية، لمفهوم براق، هو التقدم ، وأن أصحاب رؤوس المال، ورجال الأعمال ،الذين يسيطرون على مقاليد الأمور في الغرب،همالمجتمع،ويسمونه بالمتقدم لكنها في الحقيقة، كلمة حق أريد بها

[1]- ماكس هوركهايمر و ثيودور أدورنو، المصدر السابق ،ص 58.
[2]- ماكس هوركهايمر. وثيودور أدورنو، جدلية التنوير، نقلا عن كادي قادة عبد الجبار،المرجع السابق، ص59/60

باطل،لأنه في الحقيقة المتقدم ،هم رجال المال والأعمال،الذين يملكون وسائل الإنتاج، وبالتالي يتحكمون في البلاد والعباد ،بحيث يتحول أفراد المجتمع، إلى أشياء خرساء وعمياء ،تنتج وتدير المؤسسات، لصالح الطبقة الرأسمالية فقط، وهم تستمر سيطرتهم، بقدر جهل وتخلف الطبقة العاملة،علىاختلافها،وفي غياب وعي ثوري تحرري، يستعيد الكرامة المسلوبة، والحقوق المهدورة .ومادام هذا الوعي الثوري التحرري معطل ،تحت طائلة الخوف أو العجز أو الجهل ،لدى الأغلبية الساحقة من العمال ،فان رجال المال والأعمال الذي يتحكمون في الشركات الكبرى، والمؤسسات السيادية في المجتمع ويسيطرون على خيرات البلاد والعباد، ويتصرفون في تسيير وتدبير أمور الحكم، يحاولون استغلال هذا الجهل واللامبالاة والعجز في فهم وإدراك العلاقات الاقتصادية وطرق التسيير والإدارة وأشكال العمل ووسائل الإنتاج لتسخير العمال كأشياء، وإدامة جهلهم وعجزهم بطرق غاية في السبك والتعقيد والتشابك ، لتحقيق التبعية والخضوع المعقلن ، بحيث تمر هذه العقلانية المعقدة كأدوات من الصبغة الاجتماعية إلى الصبغة العلمية ثم الاقتصادية ، حيث يمارس الرأسمالي سياسة التدجين على العمال، الذين ينضوون تحت إمرته، ويتركهم حبيسي عالم الأشياء و الغرائز . وهكذا فالعقل هنا يلعب دور الوسيط بين العمال ورب العمل حيث يخفف من غلواء الاستغلال والظلم ، الذي يمارسه أرباب العمل، على نفوس العمال ، ويجعل السيطرة مبررة ومستساغة بطرق معقدة ومعسولة ، وهذه العقلانية تستدعي تطابقا بين دال التقدم ومدلوله، وبين مفهوم المجتمع الكلي ،والفرد كجزء من هذا المجتمع، فهو مجرد انعكاس آلي، لهذا المجتمع الاقتصادي الرأسمالي، لكن أدورنو بمنهجه الجدلي السلبي، يحاول أن يسلب هذه العلاقة، بين الرأسمالي والعامل، طابعها الإيجابي العقلاني و الوثوقي ،ويفضح مفاهيم الوضوح والدقة والتطابق ، التي ينسجها العقل اجتماعيا، ويحاول صبغها على الكيفيات العلمية والتقنية الفكرية والاقتصادية .وعليه نجد الثقافة الغربية المعاصرة حافلة بالأساطير، وممتلئة بالمفاهيم الحضورية والأفكار الايجابية ، والتي شكلها العقل المعاصر الذي ادعى كل مرة ،التنوير والحداثة والتقدم ."[1]

[1]- كادي قادة عبد الجبار , المرجع السابق 77/76.

المبحث الثاني:المفاهيم الأسطورية المسيطرة على الثقافة الغربية.

وفي السياق نفسه، يوضح كل من هوركهايمروأدورنو بشكل أكثر دقة ،المفاهيم الأسطورية التي تسيطر على الثقافة الغربية وما أفرزته من مدنية معاصرة كالعقل والمؤسسة، والتكنولوجيا والتقدم والحرية والتحضر والسيطرة على الطبيعة والحداثة ،والفن الجميل... ،وفي الوقت نفسه، يفضحا مزاعم العقل التنويري المعاصر، حيث يبرزان،[1] "الوعي السيئ للزمر، التي تجسد الضرورة الاقتصادية عبر إعلانهم، فيتكلمون على القدر وعلى الدعوات، وكلها أكاذيب أسطورية، فقوانين السوق الموضوعية ليست مسيطرة على أفعال قادة المبادرات، لا يؤمن القادة أنفسهم بأية ضرورة موضوعية، لإنهم يقدمون أنفسهم كمهندسي التاريخ الكوني، وحدهم المقموعون هم الذين يقبلون بالتطور كضرورة، وعند كل ارتفاع لمستوى الحياة يزداد أيضا مستوى عجزهم، فحين يؤمن قسم ضئيل من وقت العمل الذي يعطيه سادة المجتمع، لمن هم بحاجة لتأمين سير الآلة، أما القسم الأكبر من السكان يصبح خاضعا لتربية قسرية تؤمن حرسا إضافيا للنظام، يشكل الأداة بتصرف المشاريع الحاضرة والمستقبلية"[2]

وذلكم الوعي المغلوط للعمال كما سبق وأن قلنا ، وهذا بجعل هاته السيطرة للنظام الإداري الاقتصادي مبررة عقليا و محصلة للحتمية التاريخية، وأنها منسجمة مع التطور العلمي والتقني ما هو إلا أساطير متوارثة عبر السنين، التي ترى في العجز عن فقه آليات السلطة والتسلط والابتعاد عن الفهم الصحيح لتطور القوى الاجتماعية ، وطبيعة العلاقات الاقتصادية والروابط التبادلية بين العمالداخل البنية الاجتماعية نفسها، وعدم معرفة الدور المنوط بهذه الفئة المقهورة والمهضومة الحقوق،والتي أبت الإيديولوجية المسيطرة، إلا أن تعيش تلكم الفئة ،على هامش التطور الاجتماعي والاقتصادي ومسخرة إياها آليا . أي من قبل تلكم الأديولوجية . بحيث تقودها إلى أهدافها القريبة والبعيدة ،بدون مراعاة لكرامتها وإنسانيتها، والتعبير عن حقها المشروع في التغيير والتطوير،مع عدم وضع حدود وقيود لطموحتها وأهدافها الاجتماعية والإنسانية النيرة . إن "عبثية حالة الأشياء هذه حيث يتزايد سلطان النظام على الناس بقدر ما يبتعدون عن الطبيعة،ليرفض عقل المجتمع العقلاني باعتباره باطلا، تبدو ضرورة هذا العقل مجرد ظهور، مثل حرية أصحاب المشاريع التي تظهر طبيعتها الطغيانية في الصراعات والاتفاقيات ،التي لا يستطيعون الوقوف ضدها،هذا الجانب المظهري الذي تضيع الإنسانية "المتنورة"

[1] كادي قادة عبد الجبار ، المرجع السابق، ص 78.
[2] - ماكس هوركهايمر و ثيودور أدورنو، المصدر السابق، ص60/61.

بكليتها داخله ،لا يمكن أن يزال بفلسفة تكون أداة سيطرة وعليها أن تختار بين الأمر والطاعة،عاجزة عن الخروج من الخلط،فان الإنسانية،قد تمكنت من الاعتراف بمنطق المبادرة وتماسك التناقض"[1]

وعليه فان الإمعان في المنطق الشيئي، حين التعامل مع قضايا الكون والإنسان والحياة، والذي توليه الإيديولوجية القائمة أهمية خاصة، وتغري به أفراد المجتمع ، فتبتعد بذلك عن مطالب العقل التنويري الأصيلة،وتتنكر لثقافة المجتمع الحقيقية ، لتتحول إلى صناعة ثقافية ، تخدم أهداف دنيئة للأيديولوجية المسيطرة، وتجعل من العقل أداة لتبرير الظلم والسيطرة والقهر باسم القوانين والمؤسسات وأجهزة الإدارة، والمشاريع والبرامج المختلفة، بحيث يصبح الفرد صورة مصغرة عن النظام الكلي، وعن الإيديولوجية الشمولية المهيمنة، يطبق ما تقرر من قوانين وتشريعات، ويطيع ما تأمر به من قرارات وما تضعه من استراتيجيات خاصة بالسلطة المسيطرة،وفي هذه الحالة لا هناك من معنى للتنوير والتطوير ، بل بالعكس تسود معاني الظلام والظلم والتبعية والخضوع القسري للنظام الكلي .إن نقد التنوير هو نقد العقل ذاته أي" نقد الأسس الفكرية والأنطلوجية والإيديولوجية التييستند إليها الواقع المعاصر الذي صدر إليه بنية التسلط والتدجين حيث أصبح الإنسان المعاصر أسير الحاجات اليومية ،وهذا دفعه إلى تقديم "صورة بربرية للحرب الشاملة،هذه الآلة الرهيبة التي ينتظم إيقاعها على غريزة التدمير،ومثل هذا الخراب ،هو نتاج عقل يدفع جنوحه الطائش نحو حدود اللاعقل ،وقد عبر أدورنو عن ذلك بأنه اللحظة التي تتحقق فيها يوتوبيا فرنسيس بيكون:أي السيطرة على الطبيعة عمليا،يتجلى في جوهر الإخضاع ،الذي يمارسه الإنسان على نفسه ، وعلى من حوله ،وكان ينسب إلى الطبيعة والعقل المعرفي الذي كان أداة لتحقيق طموحات الإنسان، في حياة أفضل ،أصبحت وسيلة للتدمير الإنساني.[2]

" ويعالج أدورنو موضوع فلسفة التنوير من خلال إثارة أسئلة حول بنية العقل المعاصر، ويتساءل هل الصورة التي وصلت إليها الحضارة المعاصرة هي نتيجة لفلسفة التنوير، التي استبعدت الأبعاد المختلفة للعقل، وجعلته يقتصر على العقل العلمي والتكنولوجي، وتم استبعاد صور العقل الأخرى، مثل العقل الخيالي، والأسطوري، فنقد التنوير هو نقد العقل ذاته، أي نقد الأسس الفكرية والأنطولوجية والأيديولوجية التي يستند إليها الواقع المعاصر، الذي أصبح يتعارض مع الفرد ويهيمن عليه، وصدر إليه بنية التسلط والتدجين، حيث أصبح الإنسان المعاصر أسير عبودية الحاجات اليومية والاستهلاك، وهذا ما يدفعه إلى

[1]- ماكس هوركهايمر و ثيودور أدورنو، المصدر السابق،ص.ص61 ، 79.
[2]- عبد المحسن المرشد، فلسفة أدورنو ونقد التنوير، الصفحة الالكترونية: جسد الثقافة، عنوان الموقع aljsad.net ، نقلا عن كادي قادة عبد الجبار, المرجع السابق، ص80.

تقديم صورة بربرية للحرب الشاملة، هذه الآلة الرهيبة التي ينتظم إيقاعها على غريزة التدمير، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الخراب مجرد مصادفة غير متوقعة، إنه نتاج عقل يدفع جنوحه الطائش نحو حدود اللاعقل. وقد عبر أدورنو عن ذلك حين بين أنه في اللحظة التي تتحقق فيها يوتوبيا فرنسيس بيكون: أي السيطرة على الطبيعة عملياً، يتجلى بشكل واضح جوهر الجبر والإخضاع الذي يمارسه الإنسان على نفسه وعلى من حوله، وكان ينسب إلى الطبيعة والعقل المعرفي الذي كان أداة لتحقيق طموحات الإنسان في حياة أفضل أصبحت وسيلة للتدمير الإنساني"[1]

وهذا المنطق المادي أصبح متفشيا، بين جميع أفراد المجتمع ، وأشعل فتيل الحرب بينهم، وأمسى يعيش الكل في دوامة الكراهية و العنف ،ليس هذا فحسب، بل أصبح الإنسان يمارس السيطرة على نفسه أيضا ،لأنه يدور دوما في فلك الأشياء، ويهفو إلى الماديات، من استهلاك وموضة ومتعة...، مما جعله يفقد كرامته وحريته أيضا ، في هذا العالم المادي الاستهلاكي، الذي يخاطب الغريزة فقط ، بجعل العقل ينساق وراء سلطان الغرائز والأهواء،ويدور باستمرار، في دائرة أضيق من الأنانية .وعليه فأسطورة المردود الاستهلاكي، هي الصورة المركزية للحضارة الغربية ، وان نقدها ،يبدأ من نقد العقل،الذي يتجسد في لغة العلم التي تنزع . بحيادها . إلى إمكان التعبير عما لا يتمتع بالسلطة، ولهذا يقول أدورنو في كتابه جدل التنوير : "إن الكائنات لا تجد في العلم إلا رموزها المحايدة، والعلم بطابعه الجزئي يقدم لنا ميتافيزيقا أكثر ميتافيزيقية من الميتافيزيقا نفسها، إن العقل لم يستنفد الرموز فحسب،استنفد أيضا ورثة هذه الرموز أي المفاهيم الكونية،ولم يبق من الميتافيزيقا إلا الخوف المجرد عند الجماعة البشرية، هذا الخوف الذي ولدت منه الأسطورة"[2]. لذا فالمطلوب بعد كل هذا هو نقد العلم الغربي، والتشكيك في مساره ونتائجه وأهدافه، بعد انحصر همه ،في خدمة بعد واحد في الإنسان، وهو البعد المادي الغريزي فقط ،وانحرف بذلك هذا العلم عن رسالته التحررية للإنسان والإنسانية، بتركيزه على صورة ،من صورة الوعي الإنساني ،ألا وهي العلم التقني ، لكنها مع ذلك ،محرفة عن مسارها الأصيل ؛وأهدافها الحقيقة، مما أكسب المجتمع الأوروبي، صورة سوداوية قاتمة، نتيجة لسيادة هذا المنطق المادي الاستهلاكي . إن سيطرة العقل على الموضوع ، لم تكن أبدا مجرد إجراء نظري ،بل هي سيطرة على العالم،وتنظيم له في آن واحد، ولهذا فالتاريخ لا ينفصل عن تاريخ العقل، إذا كانت فلسفة التنوير تدعو إلى استخدام العقل في مجال جديد

[1]- رمضان بسطاوسي , فلسفة ادورنو ونقد التنوير , المجلة الالكترونية الكلمة ،العدد 5 ،سبتمبر 2012 ، تاريخ الدخول الى الموقع :20جوان 2022, عنوان الموقع: alkalimah /net.

[2]- عبد المحسن المرشد، فلسفة أدورنو ونقد التنوير، نقلا عن كادي قادة عبد الجبار , المرجع السابق، ص80.

،هو نقد العقل نفسه في استخدامه كبنية اجتماعية للسيطرة، ويبدأ أدورنو نقده لأعمال الفلاسفة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أن فلسفة التنوير تخلط بين استخدامات العقل المطلقة، فتم استخدام العقل في البحث في مجالات سبق لكانطأن بين أنها تتجاوز قدرة العقل الإنساني،وقد تم تعميم ما توصل إليه العقل في تلك الفترة على باقي التاريخ الإنساني، بينما القرن الثامن عشر الذي تنتمي إليه فلسفة التنوير، لا يمثل إلا لحظة من لحظات تاريخ العقل [1].

في هذا يصرح كل من ادورنو وهركهيمر بالقول : " مع احتفاظ العقل بالكلمة الأخيرة تجاه كل إيتوبيا مؤقنمة فارضاً السيطرة تحت شكل الانقسام، تصبح القطيعة بين الذات والموضوع الذي يمنع إبرازها علامة على لاحقيقة هذه القطيعة وعلى الحقيقة. إن إدانة الوهم قد ظلت على الدوام إشارة إلى تقدم السيطرة وتعرية لها في آن. إن العقل ليس عقلاً فقط، إنه الطبيعة وقد صارت معقولة في غربتها عن ذاتها. في المعرفة التي يدركها العقل من ذاته كطبيعة منقسمة، الطبيعة التي تشير إلى نفسها كما في ما قبل التاريخ، لا في اسمها الذي اختصر في قوى الطبيعة الحية التي تعني أية قوة بل كشيء أعمى. إن علاقة الاستقلال عن الطبيعة السيطرة عليها، دون ذلك لا وجود للعقل. بالاعتراف خاشعاً بسيطرته على الطبيعة وبالانسحاب عنها يقضي العقل على ادعائه بالسيطرة التي تربطه بالطبيعة حصراً. حتى لو هربت الإنسانية من الضرورة لتركن إلى التقدم والحضارة، تظل الإنسانية عاجزة عن التوقف دون أن تتخلى عن معرفتها لنفسها، أقله أن تعترف بذلك تجاه المتاريس التي تقيمها ضد الضرورة بضمانات الحرية المستقبلية. مع كل تقدم في الحضارة كانت منظورات السيطرة تفتح في الوقت نفسه منظورات رفع هذه السيطرة. وبما أن لطف نسيج التاريخ قد صنع من آلام فعلية، وهي آلام لا تخف نسبتها مع ازدياد وسائل نفيها، فإن تعيين هذه المنظورات لا يمكن أن يستند إلا لهذا المفهوم. بوصفه مفهوماً علمياً فهو بالنسبة للناس ليس وسيلة تمايز عن الطبيعة بل هو أداة تأمل بالنسبة للفكر، تظل في العلم مربوطة بتطور الاقتصاد الأعمى وتسمح بتقدير المسافة التي تؤبد الظلم. وبسبب استمرارية الطبيعة في الذات حيث تكمن الحقيقة المجهولة من كل حضارة يعارض العقل في السيطرة على العموم والنداء الذي يتكرر . حتى منذ زمن فانيني . (Vanini من أجل كبح العقل هو نداء يتأتى لا من الخوف الذي يطلقه العلم

1- عبد المحسن المرشد، فلسفة أدورنو ونقد التنوير، نقلا عن كادي قادة عبد الجبار , المرجع السابق، ص82.

بقدر ما يأتي من كراهية الفكرة الجموحة التي تفلت الطبيعة، ويعترف بأنه ليس إلا رجف الخوف من هذه الطبيعة إزاء نفسها[1] "

وهكذا يسلب كل من هوركهايمروأدورنو المفاهيم الأسطورية التي أنتجها العقل التنويري الغربي ،وأصبحت كمخدر للشعوب الأوروبية عبر والزمان، بواسطة العقل والعلم والتقنية، لكي تضمن له هاته الثقافة الصناعية بشكل واهم، الرفاه المكان المادي والرخاء الاقتصادي والرقي الاجتماعي وبالتالي المتعة والموضة والسعادة . [2]

هذه الأساطير التي أدعتها الثقافة الغربية المعاصرة، كأساس للتقدم والتنوير ترسخها وتديمها قوى السلطة والهيمنة الخفية والغير واعية للإنسان الغربي، ومن أهم هذه المفاهيم الأسطورية ،التي أظلت الإنسان المعاصر، عن مساره العقلي التنويري الحقيقي ، والتي أصبحت معجون خبزه اليومي، نذكر فكرة الضرورة ،الذي تترجمه أشكال العقل التسلطي لدى كل شريحة أو طبقة ، وكان القسمة بين العمال وأرباب العمل والمؤسسات ، أصبحت قدرا وحيدا لا محيد عنه ولا بديل، إضافة إلى مفاهيم أخرى أسطورية ،مثل الربط بين العقل والتقدم بجعل العقل أداة "العقل الأداتي" للتحكم في الذات والطبيعة والمجتمع والناس أجمعين لتحقيق التنوير أو التقدم المنشود، كما كشف النقاب عن طريق منهج السلب الجدلي دائما عن مفاهيم ايجابية، تدخل في دائرة الأساطير في الفترة المعاصرة والتي أصبحت معروفة في قاموس الثقافة الغربية اليوم وهو مفهوم السيطرة الذي نتج من عدم نقد العقل لذاته بطريقة محايدة بعيدا عن التوظيف و الاستغلال الأداتي الذي برر أنواع مختلفة من السيطرة مثل السيطرة على المجتمع بل والإنسانية ككل والسيطرة على الذات والسيطرة على الطبيعة والتحكم في التاريخ الكوني،مما أدى إلى الوقوع في الأسطورة أو اللاعقلانية التي زادت من طغيان العقل في إشباع الغرائز وتحقيق المصالح ،وإدامة التسلط والإدماج الثقافي والفكري،في فلك السلطة المسيطرة .[3]

وبالتالي حسب ادورنو أنه " في أيامنا لا فرق بين العقلانية التقنية وعقلانية السيطرة بالذات . إنها سمة المجتمع المتغرب : فالسيارات والأفلام والقنابل تؤمن ترابط النظام إلى درجة أن وظيفتها القائمة على التسوية قد انعكست على الظلم الذي حفزته. لم تصل تقنية الصناعة الثقافية حتى أيامنا إلا إلى جعل الإنتاج إنتاجا مقننا، إنه صناعة أشياء متماثلة، مضحية بكل ما يشكل فارقا بين منطق العمل ومنطق

[1]- ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو، المصدر السابق، ص64/63.
[2]- كادي قادة عبد الجبار ، المرجع السابق ص82.
[3]- المرجع نفسه، ص83

النظام الإجتماعي، يشكل ذلك لا محصلة نظام التطور التقني بوصفه نظاما، بل محصلة وظيفته في الاقتصاد الحالي."[1]

ونجد أن العمال كناس يشكلون الأغلبية في المجتمع، يرضون بهذا القمع والقهر والتسلط، كضرورة يفرضها التنوير العقلي للمجتمع وللإنسانية ، وهو أيضا أسطورة تضاف إلى الأساطير الأخرى، التي تشيعها الثقافة الغربية المعاصرة، باسم العقل التنويري.

لكن هل يفقه المجتمع المعاصر، وبخاصة الإنسان المعاصر، قوى وأشكال السيطرة الخفية ، ويعي صور الهيمنة والقهر ،التي يراها عادية ومقبولة ،في حين أنها مفروضة على ضميره الفردي والجمعي، بشكل غير مباشر وغير واعي؟، وهل يرقى وعيه إلى مستوى الكشف عن هذه الأساطير الموهمة والمضللة، وفضح من ثم السلطة التي تحول دون تحرره وانطلاقه وتقدمه الحقيقي؟، وهل يبقى ذلك الوعي التحرري غائبا، والتحكم الإيديولوجي ساريا ومتحكما، ونفاذ السلطة المسيطرة، داخل أوصال المجتمع الاستهلاكي قائما ومستمرا ؟.

وعي الطبقة العاملة الزائف، وغياب العقل التنويري الجديد :

وفي ظل سيطرة هذا المنطق الأسطوري العارم ،الذي يغزو الحياة المعاصرة، باسم التنوير والتطوير ، وتحوله إلى اللاشعور الجمعي للعمال، الذين يشكلون أغلبية المجتمع الأوروبي المعاصر، يتراجع الشعور الثوري ،الحامل للتنوير التحرري الحقيقي، ويتراخى العمال في مواصلة مسيرتهم النضالية المقدسة ضد هذه الأساطير التي تشيعها وتذيعها الثقافة الغربية الرأسمالية،ويتحول العقل إلى أداة تخدم الأيديولوجية المسيطرة، والموجهة للسير العام للمجتمع وأفراده، بدل من ممارسة دوره الحقيقي المحايد البعيد عن الاستغلال والتوظيف الأداتي ،حيث يبقى يمتهن فقط وظيفة جدلية سلبية متواصلة ،منتجة في كل مرة لمفاهيم الاختلاف و الجدة و ومقولات التنوير والتغيير، ومتجاوزة في الوقت نفسه لمفاهيم التماثل والأداتيةوالأدلجة، لذا كانت دراسة أدورنو للجمال الفني هي جزء من رؤيته للثقافة نفسها، وقد توصل عن طريق عملية السلب المتواصلة للعقل التنويري ،إلى إدراك الثقافة السلبية الكامنة والمتوارية عن الحواس والأذهان، والمناوئة للثقافة الصناعية الاستهلاكية،وهي الثقافة السلبية التي ينتجها الفن عموما والجمال بخاصة ،للتحرر من كل أشكال الاغتراب التي تطغى على المدنية المعاصرة .وعليه يشير كل من

[1]- ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو، المصدر السابق ،ص 143

هوركهايمروادورنو في كتابهما جدلية التنوير بكيفية عميقة ودقيقة إلى هذا الشعور المتبلد والزائف للطبقة العاملة، وتقاعسهم في مواصلة مسيرة التنوير والتغيير ، نتيجة عدم الانصياع لصوت العقل الحقيقي والمحايد، وجعله الحاكم الحقيقي في معترك هذه الحياة المادية الصاخبة، بالصراع الطبقي والمادي ،حيث يقولان في هذا الكتاب : "وأما الاعتراف بالسيطرة في الفكر نفسه، بوصفها طبيعة لا متصالحة فيسمح بتسهيل هذه الضرورة التي تعتبرها الاشتراكية نفسها ضرورة أزلية، ما يوحي بوجود تنازل بالمعنى الرجعي للكلمة ، فهي تعتبر الضرورة كما لو كانت القاعدة والعقل الفاسد بطريقة مثالية مثل القمة ؛ ما يعني أن هذه الفلسفة قد ظلت على تواصلها مع إرث الفلسفة البورجوازية،إن العلاقة بين الضرورة ومملكة الحرية ستظل محض كمية ، ميكانيكية، وستكون الطبيعة كلية تمتص الحرية والاشتراكية في آن واحد، بالتضحية في الفكر

بشكله المتشيء، إن في الرياضيات والآلة أو النظام ،إنما ينتقم من الإنسان الذي نسيه [1] ونستشف من ذلك أن الاعتراف بواقع السيطرة والرضى به، بحيث يصبح هذا الاعتراف الفردي بالإيديولوجية القائمة في اللاشعور الجمعي ، ويتحول إلى حقيقة ثابتة وأمر في غاية الاعتيادية ،ومن ثم ينشأ التطابق بين الفرد والمجتمع، في وحدة لا تنفصم ولا تزول ، كبينة اجتماعية كلية، أبدعها العقل بشكل مغرض ، وفرضها كنموذج تنويري غير مسبوق، على هذا العصر والعصور التي تلحق، واعتبرها هذا النموذج كصنم يعبد ،ولا يعبد سواه من النماذج الأخرى، ولا يسمح بمنافسته أو تجاوزه ،لان ذلك يعتبر من الطابوهات لقد رفض التنوير الاكتمال ، وحين نخضع له كل ما هو وحيد وفردي ، فذلك ما يتيح للكلية أن تعود ،تحت شكل السيطرة، ضد الأشياء ، ضد الوجود ووعي الناس ، لكن الممارسة الأصيلة والثورية هي التي ترتبط بتصلب النظرية تجاه المجتمع الذي في لاوعيه يتيح الجمود للفكر، ...، يكمن الخطأ في العمى الذي أصبح المجتمع أسيرا له، وفي نهاية الأمر يصبح الاحترام الأسطوري للشعوب،بما هو معطى وما ينتجونه هم دون انقطاع، يصبح فعلا ايجابيا،إنها ثروة تخجل المخيلة الثورية من نفسها"[2] علاوة على ذلك ،فان التنوير يبقى معنى غير مطلق ،وهو يتناقض مع استخدام العقل له بشكل مغرض، بحيث يصبح آلة لنشر الظلام والتخلف ، بفرضه التبعية والخضوع على أفراد المجتمع، ويتحول إلى أداة للسيطرة والتسلط على عالم الطبيعة وعلى الوعي الاجتماعي ، بارزا بذلك في شكل نظام كلياني قاهر، مستغلا في الوقت نفسه،

[1]- ماكس هوركهايمر. ثيودور أدورنو، المصدر السابق ،ص63/64.
[2]- ، المصدر نفسه ،ص64.

جهل الناس بطبيعة هذا التنوير الذي يدعيه هذا العقل المادي أو التقني ، الذي يدور حول بعد واحد ،وهو البعد المادي الغريزي،وهنا يكمن خطر الثقافة الغربية،التي أمعنت في التبضيع المادي للفكر الإنساني.

وعليه،" يصبح التنوير هداما،كما يؤكد على ذلك أعداؤه الرومانسيون،لا يجد التنوير ذاته،إلا حين يرفض كل تواطؤ مع أعدائه، وحين يجرؤ على نفي الخطأ المطلق،الذي هو مبدأ السيطرة العمياء،إن روح نظرية بهذا التصلب، ستكون قادرة على تحويل التقدم،لما هو الغاية منه،لقد كان بيكون يحلم بألف شيء،"لا يمكن للملوك وكنوزهم اكتسابها،ولاشيء لقدرهم عليها،ولا يكون لمبعوثيهم ومن يمدهم بالمعلومات، بإسداء أية معلومة لهم"[1] ،فكل من يريد أن يفهم التنوير من زاوية عقلية محددة ويطمح إلى فرض هذا الفهم على جميع العصور ،فهو يعتبر من أعداء التنوير والتغيير،ومتسلطا على الوعي الإنساني، ذي الصور المتعددة والأشكال المتنوعة، لأنهم فهموا التنوير على أنه التطور المادي، و الرفاه الاقتصادي، الناتج عن التغلب عن الطبيعة، والذي يكرسه اقتصاد السوق باستمرار،وتناسوا الأبعاد الأخرى الأهم في الإنسان نفسه، مما جعل كلمة تأخذ معنى غير عقلاني وغير إنساني في عصرنا هذا . التنوير أما البورجوازيون و بالتناسق مع رغباتهم، فإنهم الوارثون "المتنورون" للملوك وقد نالوا هذه المعلومات، مع تضاعف العنف بتدخل السوق يكون الاقتصاد البورجوازي ،قد ضاعف من موضوعاته ومن قواه ، بحيث إن البورجوازيين أو حتى الملوك لم يعودوا قادرين على إدارته: فالإدارة بحاجة إلى كل الناس... وحين لا يقدم"المبعوثون والإعلاميين أية معلومة" أي حين يعترف بالطبيعة المجهولة من العلوم كأراضي منشأ وان لحظة الإيتوبيا التي يقول بها بيكون "السيطرة على الطبيعة"، أما العلم الذي يرى فيه بيكون تفوق البشر فقد يؤدي إلى زعزعته، ولكن، و بالنظر إلى هذه الإمكانية، يبدو التنوير في العصر الحاضر خدعة كبيرة"[2]. وهذه الخدعة جاءت من كون أن كلمة التنوير طرحها العقل الأداتي ،الذي هو تأويل للعقل الأصلي ،وتحريف عن مقاصده وأبعاده الحقيقية،وهذا بحصر العقل التنويري في المردود المادي والتطور التقني فقط، متجاهلا الصورالأخرى للعقل الإنساني،كما أن هذا الطرح الشمولي والكلياني ، يضع جانبا الصيرورة الجدلية،التي يأخذها العقل الإنساني عبر التاريخ وبذلك فهذا العقل قد تأدلج.

وعليه فهناك احتضار للجانب الأخلاقي في الإنسان ، مع الاستهانة بهذا من قبل أفراد المجتمع من جهة،وإضعاف الإدارة المؤسسية، المبرمجة لهذا الشعور الروحي والنور العقلي. وعليه تصبح علاقة الإنسان بذاته، والعلاقة بين الإنسان بالآخر ،محض علاقات تخضع للأسطورة، وانه على الإنسان في

[1]- ماكس هوركهايمر. ثيودور أدورنو، المصدر السابق ص64.
[2]- المصدر نفسه ،ص64.

هذه المدنية، ولاسيما العامل المستلب، أن يتحلى بروح فنية وجمالية سلبية نقدية ، كما يجب أن يتسلح الفرد بهذه الروح دوما،في نضاله ضد التسليع الثقافي، لصون وعيه من الاستلاب والاحتواء الأداتي ، وأن يتسامي شعوريا وجماليا، عن السيطرة التقنية والعلمية ، ا تكرسها النزعة الوضعية ، حتى لا يرضى أو يستسلم ، لأشكال الواقع المعاش

وفي الوقت نفسه، يعمل السادة البورجوازيون،على إدامة هذا الشعور اللاواعي عند الطبقة العاملة ،وتشجيع الإدماج الفكري والثقافي ، لهذه الطبقة ضمن النسق الاجتماعي القائم ،ومحاولة تزيينه وتلميعه إعلاميا واقتصاديا واجتماعيا وإنسانيا،حتى لا يتركون مجال للاحتجاج والثورة والتغيير،كما يصاحب هذا المكر عند السادة الرأسماليين،غياب وعي طبقي حقيقي،لطبيعة وحقيقة المجتمع القائم ،و عدم فقه آليات التسلط التي تحركه،والتي تعمل بشكل دؤوب على إدامة ذلكم الإدماج ،بتكريس الثقافة الصناعية المبهرة والموهمة، وأيضا الافتقاد إلى روح تنويرية ثورية بحق، لانتخاب واقع اجتماعي جديد.

المبحث الثالث: الصناعة الثقافية وأشكال السيطرة في المجتمع الغربي :

إن العقلانية المعاصرة، ضخت الكثير من المفاهيم المضللة؛ والأساطير المتنوعة،عن طريق صناعة ثقافية محددة، نابعة من عمق المؤسسات الرأسمالية الكبرى، التي تكرس بأشكال مختلفة، الهيمنة الإيديولوجية كالأسلوب، واللغة، والديموقراطية والحرية والعقل التنويري والتسلية والذوق السامي،وكل ذلك أدى إلى إفراز جمال غير حر وغير مستقل،يعبر،عن سيطرة الأداة الاقتصادية والإدارية،للغرب المهيمن .

ففي الصناعة الثقافية يبدو الأسلوب الأصيل" معادلا جماليا للسيطرة ، إن فكرة أسلوب متماسك من الناحية الجمالية الصرفة ،هو حلم رومنسي يتجه نحو الماضي،ففي وحدة أسلوب عصر النهضة والقرون الوسطى المسيحية نجد التعبير عن العنف الاجتماعي الذي يختلف من مرة لأخرى، ولا نجد التعبير عن التجربة المشوشة والكونية ،لمن هم تحت السيطرة ، فالفنانون الكبار لم يجسد والأسلوب الأكثر صفاء وكمالا، كحقيقة سلبية، وحتى الأعمال الكلاسيكية، مثل موسيقى موزارت، نجد فيها نزعات موضوعية، تتناقض مع الأسلوب الذي تجسده،فحتى شونبرغ وبيكاسو،أبديا حذرهما تجاه الأسلوب ، وحين كانت الأسئلة الحاسمة موضع تنازع، فإنهم لن يتوقفوا عند الأسلوب بل مع منطق الموضوع"[1].

" ففي أيامنا لا فرق بين العقلانية التقنية وعقلانية السيطرة بالذات . إنها سمة المجتمع المتغرب : فالسيارات والأفلام والقنابل تؤمن ترابط النظام إلى درجة أن وظيفتها القائمة على التسوية قد انعكست على الظلم الذي حفزته. لم تصل تقنية الصناعة الثقافية حتى أيامنا إلا إلى جعل الإنتاج إنتاجا مقننا، إنه صناعة أشياء متماثلة، مضحية بكل ما يشكل فارقا بين منطق العمل ومنطق النظام الإجتماعي، يشكل ذلك لا محصلة نظام التطور التقني بوصفه نظاما، بل محصلة وظيفته في الاقتصاد الحالي. والحاجة التي قد تفوت الرقابة المركزية هي حاجة قامت رقابة الوعي الفردي بردعها. فالانتقال من التلفون إلى الراديو قد أبرز تمايزا في الأدوار: فالتلفون، من جانب ليبرالي، قد يسمح حتى الآن للمشترك فيه أن يلعب دور الذات . ومن الناحية الديموقراطية فقد حولت الراديو كل المشاركين إلى مستمعين مخضعة إياهم قسريا لالتقاط برامج مختلف المحطات والتي تتشابه بمجموعها. لم يتطور أي نظام للإجابة ، كما أن البث الخاص كان يحاول الإفلات من الرقابة، إذ اقتصر على الهواة الذين كان عليهم أيضا الخضوع لتنظيم من أعلى. أما في إطار الإذاعة الرسمية فإن كل معلم من معالم العفوية عند الجمهور كان مراقبا

[1]- ماكس هوركهايمر. ثيودور أدورنو، المصدر نفسه ص89

من قبل من يصطادون المواهب، وبالمباريات داخل الإستديو أو بمظاهرات من كل الأنواع يقوم بها حرفيون "[1]

" فالمواهب في خدمة الصناعة حتى قبل أن تجهز وإلا قد يصعب جدا إيجاد طريق إليها. إن موقف الجمهور الذي يشجع بالمبدأ وبالفعل نظام الصناعة الثقافية كان جزءا من النظام ولا يشكل عذرا له. أما إذا اقتضى الأمر استخدام مجال آخر من الفن كالأوبرا، أو حين يقتضي استخدام الجاز، أو ما كان تقليدا له، أو استخدام موسيقى لبيتهوفن في سياق روائي لتولستوي، أو موسيقى تصويرية لفيلم ما، فإن الأمر كان يفهم وكأنه إيفاء لرغبات الجمهور العفوية. أما في الواقع فلم يكن ذلك إلا بهلوانيات خالصة. قد نكون أقرب إلى الواقع لو شرحنا الأمر بمجرد اعتباره مقاومة سلبية للأداة التقنية ولجهازها البشري، إذ يعتبران أمرا مكملاً لآلية الانتقاء الاقتصادية . يضاف إلى ذلك الاتفاق، أو قرار السلطات التنفيذية التي تقرر أن لا تنتج شيئا أو لم ينسجم مع المعايير التي تضعها، أو عن الفكرة التي تدعه ما يضعونها عن المستهلكين والتي يتشابهون معها" [2]

تظهر دراسات أدورنو الاجتماعية " بأن تلك الطريقة في الربط المنطقي لها ما يشابهها في التلفاز والأفلام والصناعة التسجيلية. كان أدورنو في الواقع أول من اكتشف التحرك البنيوي للرأسمالية المتأخرة من خلال عمله مع عالم الاجتماع بول لازارسفيلد في مشروع الأبحاث التابع لراديو برينستون. فقام بكتابة ذلك الاكتشاف في المقالة واسعة الانتشار "مقالة في الشخصية المصابة بالهوس في الموسيقى والتخلف السمعي... وفي "صناعة الثقافة"، وهو القسم من كتاب "جدلية التنوير". يناقش أدورنو فيها أن صناعة الثقافة تتأثر باختلاف السلعة الفنية، بحيث تكون شخصية تلك السلعة مفروضة عمداً على المجتمع ودعوى كونها فناً يزيد استقلاليتها . وتركزها على عامل التسويق، تقوم الصناعة الثقافية بإبعاد الفن عن مبدأ ال"غائية الفنية" والذي كان أساس الاستقلال الفني. وما أن يكون الطلب حصراً على التسويق.[3]

وباحتكار المجتمع الغربي لهذه الثقافة إداريا و أداتيا ، باسم الثقافة الفعلية، يقضي على حياد الثقافة واستقلال الجمال، وما زاد من طغيان هذه الصناعة الثقافية ، هو وصول الولايات المتحدةالأمريكية لذروة التطور الصناعي والاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية إلى غاية اليوم، واحتكارها بذلك للثقافة، عبر

[1]- ماكس هوركهايمر. ثيودور أدورنو، المصدر السابق ، ص143.
[2]- المصدر نفسه ص144/143.
[3]- موسوعة ستانفورد , ثيودور ادورنو , ترجمة سعود بن ضيعان , مراجعة سيرين الحاج حسينن، المجلة الالكترونية حكمة، ص 09.

الإنتاج والترويج للثقافة الجماهيرية، حيث نجدها في الإشهارات وصور تلتصق بالسلع واللافتات ودور السنيما والمشروبات والمأكولات بأنواعها التي تكرس ذوقا جماليا يتمثل في انتقاء الموضة والتسلية والترفيه والمتعة والراحة، وفي ظل هذا المنحى المادي الذي يخدم فقط الجانب الغريزي الحيواني ، يفقد الجمال الفني معناه ومبناه وتغيب مقاصده الحقيقية، بغياب أبعاد الإنسان الأخرى، وإهمالها من قبل الصناعة الثقافية، التي هوت بثقافة المجتمع و بالمسائل الثقافية إلى مستوى البضائع الثقافية، أنزلت تبعا لذلك الفن الإنساني، إلى درجة الفن الصناعي.[1]

وأن القيم الخلقية التي تفرضها تلكم الايديولوجية المسيطرة، هي قيم مزيفة وموهمة بأنها تدافع عن كرامة وحرية العامل ، ولكنها في الحقيقة غير ذلك ،فهي تكرس العبودية والسيطرة وعليه يبغي أدورنو من خلال ذلك، تأسيس آليات وأسس نقدية تشكل روح النظرية الجمالية ، لكل مهتم بالجمال أو الفن ،والتي على أساسها تتفرع مفاهيم أخرى كالجمال المستقل و اللامعنى واللانسقية والحداثة الفنية.[2]

ومنه فإن " فالمجتمع التكنولوجي المعاصر بهذا المعنى لم يسيطر على الحاجات المادية فحسب، بل سيطر بالإضافة إلى ذلك على الحاجات الفكرية، وغزا عالم الثقافة والفن الذي كانت فيما مضى إحدى الحصون المستعصية على الاندماج مع الواقع القائم، وقد تم ذلك لا عن طريق رفض الثقافة والفن في الحياة الاجتماعية وداخل مؤسسات المجتمع وإنما من خلال الإدماج والاحتواء التي عرضت له الثقافة داخل هذه المؤسسات حيث تم إفراغ الثقافة والفن من حقائقها النافية والناقدة لما هو قائم والاحتجاج على السيطرة التي أصبح يعاني منها الإنسان في المجتمع التكنولوجي المعاصر الذي تحولت فيه القيم الثقافية والفنية نفسها إلى قيم تجارية استهلاكية لأن كل شيء في هذا المجتمع يرتد إلى «طابع سوقي » "[3]

إنّ النتيجة التي يمكن استخلاصها من هذه النظرة، هي أن الإنسان الغربي قد فقد هويته، في ظل هيمنة «صناعة الثقافة » التي لعبت دور الأداة المكرسة للأمر الواقع بدل الدور النقدي الذي يجب أن تلعبه الثقافة الحقيقية.[4]

[1]- كادي قادة عبد الجبار ، المرجع السابق، ص 93.
[2]- المرجع نفسه، ص 94
[3]- نورالدين بوزار، المرجع السابق، ص 144.
[4] -المرجع نفسه، ص 147.

الفصل الثالث

نقد العقل التنويري عند ادورنو

المبحث الأول: العقل الأداتي وعصر التنوير

المبحث الثاني: النقد الجذري الراديكالي للعقد الأداتي.

المبحث الثالث: تجاوز العقل الأداتي عند أدورنو.

المبحث الأول: العقل الأداتي وعصر التنوير

تمهيد:

يمثل مشروع مدرسة فرانكفورت مرتكزا رئيسيا في التأسيس لفلسفة نقدية تهدف الى تحرير المشروع الثقافي الغربي من افكاره التى اصبحت تشكل قيمه جميعا , وذلك من خلال تصورات هذه المدرسة حول الانسان والتغيرات الاجتماعية , ولتأثيرات الثقافية بالإضافة الى الواقع الاجتماعي [1] وهذا ماأقدم عليه أدورنو بإعتباره يمثل أحد رواد الجيل الأول لهذه المدرسة ومن بين مؤسسيها الى جانب هوركهيمر .

ومن هنا جاء أدورنو بنظريته النقدية الراديكالية للواقع الألماني، حيث أنه تعاشى مع هوركهامير في العملية التشخيصية للوضع القمعي ومن ثم النقدية الجذرية له ، لكن هوركهامير في الأخير عجز بنظريته النقدية عن وجود حلول فانسحب ورجع إلى أصله الديني، لكن أدورنو هنا لم يتوقف عن هذا الحد كما فعل هوركهامير، وإنما تابع ما بدأ فيه لكن بنظرة مختلفة وأفق جديد،[2] ومنه نطرح السؤال إذا كان العقل التنويري واقعا في أزمة حادة كما تصورها رواد مدرسة فرانكفورت وفي مقدمتهم أدورنو، فما هو السبيل الذي يمكننا من إنقاذ هذا العقل وتخليصه من أبعاده التسلطية والأداتية ومن نزوعه نحو التحكم والهيمنة؟[3]

[1]- توفيق شابو المرجع السابق، ص 46.

[2]- ايمان مسعودي , لندة لحرش ، نقد العقل لدى الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت ،مذكرة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة ،اشراف جلول مقورة، جامعة محمد بوضياف، قسم الفلسفة، السنة الجامعية: 2018/2017، ص 39.

[3]- نورالدين بوزار، المرجع السابق، ص 121.

لقد شكل العقل الأداتي في العصر التنويري كأسلوب آخر من التفكير كونه يرى العالم أنه عبارة عن قوة فقط، وأن العلم أيضا هو وسيلة للسيطرة يصل فيها الإنسان إلى امتلاكها وهي خاصية التفكير التي ظهرت وسيطرت على الحضارة الغربية، وبالتالي فقد قام كل من مؤلفا جدل التنوير هوركهايمر وأدورنو بتحليل بنية العقل التنويري والقيام أيضا بتحليل تلك المسائل التي دار حولها المفهوم، بهدف الكشف عن هذا التحول والتغيير الأداتي للعقل باعتبار أن هذا العقل أيضا هو الآخر تحول إلى وسيلة للسيطرة وجميع أنواع القمع وغيرها، لأن هذا العقل بعد أن كان يريد التخلص من تلك السيطرة ، جاء ليحطم الأسطورة نفسها، فتتحول إلى أسطورة ذاتها.55

فيرى كل من أدورنو وهوركهايمر أن حالة التقهقر التي آل إليها واقعنا ما هي إلى نتيجة حتمية النموذج العقل السائد في عصر التنوير، والذي كان بدوره السبب الرئيسي لظهور مسألة التشيو هذا ما أدى به أيضا إلى التحول والانقلاب إلى نقيضه. 56

وبذلك يصبح العقل من وجهة نظر كل من هوركهايمر وأدورنو هو مجرد وسيلة للسيطرة والهيمنة فقط، ولذلك قاما بتحليل بنية العقل التنويري بغية فهم هذا الانقلاب الأداتي للعقل، لأنه قد تحول هو الآخر إلى نقيضه إلى الأسطورة والسيطرة وغيرها.

وقد انطلق أدورنو في كتابه جدل التنوير، بتقد العقل الأداتي باعتبار أن هذا العقل قد بشرت به فلسفته وقامت باستكماله في جميع المجالات المختلفة والمتعلقة بالحياة الإنسانية، فحسب وجهة نظر أدورنو تظهر في مفارقة هذا العقل التنويري، كون هذا العقل الذي كان في الأول يعني إبعاد ذلك.

الإنسان من تلك الأساطير والخرافات والخوف وحتى الظلم والفقر، وجميع أشكال القمع والسيطرة التي كان يعاني منها من قبل ويهدف في إخراجه وإطلاقه من ذلك الأخير والقصور، جعله يحقق مجموعة من الإمكانيات والتي على أساسها يحقق الرفاهية والحناء في المجتمع الذي ينشأ فيه.[57]

فقد نتج عن هذا العقل انقلابا كليا وتغيرا ملحوظا، وأصبح يعرف باللاعقل أو الأسطورة وما يشبه ذلك وظهرت أنماطا وأساليب جديدة من الظلم والقهر والسيطرة على الإنسان، وهذا أدى كله إلى تحول العقل إلى ضده وأصبح إن صح القول، إن هذا التنوير قد انبثق في الاتجاه إلى السيطرة.[58]

55- زيتوني خالد: إشكالية التحرر وأزمة الاستطيقا المعاصرة عند ثيودور أدورنو، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في الفلسفة، جامعة وهران2 ،كلية العلوم الاجتماعية، 2015-2016 ، ص18-19

56- ايمان مسعودي , لندة لحرش ،المرجع السابق ،ص 40.

57- المرجع نفسه ص 40.

إن العقل في رأي أدورنو يعد هو الأخر ميزة في الإنسان، ولكن هو بالضرورة مجرد أساسا ومنطلق ينبغي اللجوء إليه من أجل الوصول إلى المعرفة بغية تحقيق السيطرة والهيمنة فهذا العقلخاضع لجميع أشكال التفاعل الاجتماعي، وهذا ما أدى بالضرورة إلى وصول العقل إلى تحقيق فضاء متماسك، لكنه يبقى في جميع الحالات متكررا كالأسطورة والخرافة وغيرها، حيث ظهرت من الوهلة الأولى هذه النزعة العقلانية على أساس أنها كانت نزعة إنسانية وكل شيء خاضع للإنسان، باعتباره مخلوق عقلاني، وقد قامت هذه النزعة العقلانية إلى اللجوء إلى الصدام و الهيمنة، والأسطورة .59

إن التنوير في حد ذاته يشكل فكرة نقدية لجميع الأنظمة القائمة على الاستبداد، حيث اعتمدت هذه الأنظمة على خاصية العقل كمناورة لتحقيق جميع مظاهر المساواة والخروج من دائرة اللاعنف وجميع أشكال الهيمنة، لكنه قد شكل بتشكيل جلي وواضح في نظام الليبرالية، ومن حيث التاريخ والأسطورة ذاتها"60

كما أن الأساطير قد أكملت التنوير، فإن هذا التنوير قد ارتبك أكثر فأكثر في علم الأساطير استقى التنوير جوهر مادته من الأساطير مع أنه كان يريد القضاء عليها، وحتى مارس وظيفة الحكم ظل واقعا.

ولقد أصبح العقل مركزا حول التقدم التنويري، في ظل حرية الذات حيث هلك نفسه بنفسه أدى هذا الأمر إلى انتشار كل أساليب الدمار، وأدى أيضا غياب الإنسان ذاته، وأصبحت التطورات التكنولوجية مجرد وسيلة هلاك ودمار وبالتالي فقد انقلب العقل إلى نقيضه، وتحول إلى أسطورة وسيطرة كما تحول العلم أيضا إلى سلطة، وتحول إلى وسيلة للهيمنة على الأفراد، مما أدى إلى ظهور الفاشية، والنازية.61

ويوضح ماكس فيبر ذلك من خلال إستنطاق " مجمل التاريخ الأوروبي في مناحيه الأساسية لاستقراء شروط انبثاق وصعود العقلانية الأدائية، في محاولة نظرية عميقة لتشخيص المجتمع الحداثي الواقع تحت هيمنة النزوع الأداتي للعقل الأخذ في الهيمنة على جميع مفاصل الاجتماع والإنتاج والفكر والقانون والفن والمعيش والقيم إلخ. وكان من باب الضرورة المنهجية أن تتوقف في البدء على تبين

58- كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، ط1 ،دار الأمان، الرباط، 2011م، ص17.

59- ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق، ص41.

60- نفس المرجع ، ص41

61- علي حرب: موسوعة الأبحاث الفلسفية الفلسفة الغربية المعاصرة، ج1 ، نقلا عن ايمان مسعودي , لندة لحرش, المرجع السابق، ص 42.

الدلالات المختلفة لفكرة انزع السحر عن العالم" بوصفها فكرة العقلانية في جوهرها، والتي هي فكرة مركزية في فلسفات التنوير جميعها، مع اختلاف التشديد عليها بحسب المدارس الفكرية ومصالحها الطبقية من جهة وعلاقاتها بالمؤسسات الثقافية والدينية المختلفة ومنازعها المذهبية من جهة أخرى، يقول ألان تورين للدلالة على أهمية هذه الفكرة بالنسبة للحداثة عند ماكس فيبر« من المستحيل أن نطلق كلمة "حديث" على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل وفقاً لوحي إلهي أو جوهر قومي.»."[62] , "ولا شك أن فيبر قد تبين مبكراً الأثر الضار والمخيب للآمال للعقل الأدائي الذي هيمن على جميع مناحي الحياة والفكر في المجتمعات الغربية الرأسمالية وكذلك في مجتمعات أخرى أخذة بالنموذج الرأسمالي وبالحداثة الفكرية وربما على البشرية بشكل عام، وإن كان فيبر قد أكد مراراً على السؤال: « لماذا لم يحدث خارج أوروبا تطور للعلم وللفن وللدولة والاقتصاد، ولم تأخذ العقلانية مجراها الطبيعي خارج السياق الخاص بالغرب؟» وهو سؤال يضمر فكرة استمرار النموذج السحري اللاهوتي الذي يقوم على تفسير العالم تفسيراً أسطورياً . غير عقلاني، أو بتعبير آخر تفسير لا يأخذ بعين الاعتبار السببية الطبيعية في تفسير الظواهر الكونية، والسببية العقلية في تفسير التصورات وأنظمة الثقافة، والسيبية الاجتماعية في تفسير النظام الاجتماعي."[63]

لقد قلنا سابقا أن الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون (Francis Bacon) قد كان على أشد الاهتمام بفكرة السيطرة على الطبيعة، وقد تمكن هو الآخر من رؤيته المعرفية، قصد تمكين الإنسان من هذه السيطرة لأنه بدوره ركز على دور الذات في خلقها للأشياء .64

لقد أثبت فرانسيس بيكون أن هدف هذه المعرفة هو السيطرة على الطبيعة قد أدى إلى ظهور بعض الوسائل التكنولوجية كالمطبعة، ومما يؤكد عليه أيضا هو تواصل الثورة العلمية أدى بالضرورة إلى نمو وتطور التقنية، كاختراع أيضا الوسائل السمعية مثل الراديو والوسائل البصرية كالصحافة المكتوبة وقد تكون هذه الوسائل إحدى المنطلقات التي على أساسها تكون الهيمنة السياسية مقترنة بالمعرفة.65

وبذلك تصبح المعرفة حسب بيكون ليست هدفا في حد ذاتها، بل المعرفة الصحيحة هي التي توجد من أجل مراعاة طبيعة الناس ومدى تحقيقهم لأغراضهم، فهي ليست مجرد أفكار و مسلمات من غير أن يوجد لها انفعال مع متطلبات الإنسان وحتى في حياتهم العملية إذن تصبح المعرفة في رأي بيكون لها

---

[62]- منيرة محمد وسحر محمد , هابرماس في نقد العقل الاداتي من ماكس فيبر الى هركهيمر وادورنو , مجلة جامعة تشرين للبحث والدراسات العلمية , سلسلة الاداب والعلوم الانسانية ،المجلد ،37 العدد 03 ، 2015، ص 119.

[63]- المرجع نفسه ص119.

[64]- ايمان مسعودي , لندة لحرش، المرجع السابق، ص42.

[65]- المرجع نفسه ، ص42.

دور عملي وليست عبارة عن فوا فكريا، هذا ما أدى إلى قول بيكون بأن المعرفة قوة الإنسان (LA SAVOIR – PUISSANCE) بإعتبارها تمثل وسيلة سيطرة على الطبيعة .66

لقد كانت منطلقات كل من أدورنو وهوركهايمر في فكرة السيطرة على الطبيعة وفكرة أيضا السيطرة على الإنسان تبدو واضحة من خلال ظهور بدايات التنوير، والتي هي أيضا واضحة ومنطلقة مع الفيلسوف

الفرنسي ديكارت (Decrtes) لأنه أكد على ضرورة العقل للوصول إلى مختلف المعارف، وتأكيده على فكرة الكوجيتو القائمة على فكرة الشك ودورها أيضا في بناء المعرفة بيد أن ظهور فلسفة ديكارت لتجعل من أساس العلم هو مجرد امتلاك وتسخير للطبيعة هدف خدمة الإنسان فقط، وهذا يمكننا اعتبار فلسفة ديكارت كعاملا وأساسا واضحا في النزعة الإنسانية، والتي بواسطتها أعطت لهذا الإنسان الحق في السيطرة على الطبيعة.67

فالذات أيضا من الوجهة الديكارتية لديها القدرة الكافية في تعاملها مع العالم الخارجي والطبيعة، لأنها موضوعا قابلا للمعرفة وبذلك تعتير الذات عند ديكارت هي الأساس والجوهر الوحيد الذي يمكن بواسطتها الوصول إلى قوانين الطبيعة واستعمال جميع الوسائل العلمية وحتى التقنية .68

وبناء على هذا يؤكد أدورنو أن التأسيس الديكارتي كان له الفضل الكبير في نشوء العقل الأداتي وبذلك يصبح الإنسان من المنظور الديكارتي لم يسعى إلى وضع قوانين الطبيعة فقط وإنما اعتبرها مجالا من مجال السيطرة والهيمنة، وهذا ما أدى إلى رؤية الإنسان بأنه سيد الطبيعة ومالكهافي حين أصبح الإنسان أيضا يعتبر نفسه كذات مستقلة وكل هذا قد أدى إلى جعل الطبيعة نتيجة نحو العقل.69

وهكذا قد انتصر العقل مع حركت التنوير لأنها قد قامت بجعل كل شيء خاضع للعقل وبالإضافة أن العقل الأداتي كان أيضا مرتبطا بجميع أشكال الهيمنة، والسيطرة، حينها دمر العقل وتحطم، وأخذ يتميز بالطابع الأداتي، لأنه أصبح شاملا لمختلف الأهداف السياسية، وأصبح هذا العقل يهدف إلى الهيمنة في كل شيء، وكلما أصبح هذا العقل الأداني قادرا على السيطرة، ازداد هو الآخر انغلاقا

---

[66]- كمال بومنير: جدل العقلانية في الفلسفة النقدية لمدرسة فرانكورت انموذج هربرت مركيوز، ،الدار العربية للعلوم الناشرون بيروت، لبنان، ط1،2010 ،ص27.

[67]- المرجع نفسه، ص24.

[68]- كمال بومنير: قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، ،مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط1-2012م، ص 34.

[69]- كمال بومنير: قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، ،مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط1-2012م، ص35.

وتحطما، لذلك عمل أدورنو، على جعل هذا العقل الأداتي يلجأ إلى النقد قصد تحطيم هذا التزييف الذي يقوم به هذا العقل في الحياة الإنسانية المعاصرة.70

كما أن للمعرفة العلمية مجالا واسعا، حيث أصبح العقل منقليا إلى نقيضه والمتمثل في السيطرة والسلطة، كون أن هذه المعرفة العلمية تسعى إلى تحقيق المصلحة والمنفعة وبذلك تصبح علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة متعلقة بالنتائج العملية والمصلحة.71

نجد أدورنو في تشخيصه للنزعة الوضعية يتفق مع هوركهايمر، وحسب أدورنو أنه مع التنوير ثم محاولة إخضاع الطبيعة، وما تقوم به من أشكال الخوف والفزع، وذلك بانتصار الذات على الموضوع حيث قام العقل التنويري بتحليل هذه الأسطورة التي تمد بكل أشكال السيطرة على الإنسان، وذلك بالاستناد إلى المادة العلمية المجردة من كل ما هو مخفي سحري مثالي، وبذلك انقلب هذا العقل إلى نقيضه تماما وغدت بذلك الوضعية التي تستند في عمليتها العقلية على التحليل العلمي لبلوغ أهدافها السامية وهي إدراج المنطقية التجريبية الخاصة بكل أشكال الحساب خاصة الرياضي منه فهي تأخذ دور الإدارة فبدل أن ترتقي بهذا العقل إلى التحرر الإنساني الأسمى أدخلته إلى أسطورة ثانية ليست خرافية سحرية وإنما واقعية، وهي المتمثلة بكل أشكال السلطة والتي تقوم على التقنين العلمي القائم على الكم، الذي ينطلق من الملاحظات والتحليلات وصولا إلى نتائج منتظمة لا يمكن الخروج عنها أو التشكيك فيها.72

ومن جهة اخرى فقد كان لادورنو نقدا للوضعية يحيث يرى ان الوضعية لا يقصر مشروعها فقط على دراسة الطبيعة فقط وإنما تتعداه إلى دراسة الإنسان وهذا داخل منظومة النسق العلمي التجريبي فهي لا تخرج عن نطاق التجربة، فهي الممثل لها إذ أنها معرفة علمية تسعى إلى البحث عن القوانين التي شرعها المنهج العلمي الذي يسعى إلى دراسة الطبيعة والإنسان بنفس الخطوات، وهذا حسب أغست كونت(Aguste Conte) في مقابل المعرفة المتأسسة على أساس ديني جاعلة من الميتافيزيقا مثالا في دراستها.

ولهذا فالوضعية تنطلق مما هو واقعي عقلي وصولا إلى نتائج علمية نفعية قائمة على أساس كمي رياضي، وعندما تتجاوز حدودها الطبيعية لتصل إلى الإنسان، أي أن الوضعية لها غايات هي البحث في الظواهر الاجتماعية وغايتها هي جعل هذا الكائن قابل للتجربة العلمية التقنية مثله.

---

[70]- المرجع نفسه، ص39.

[71]- المرجع نفسه، ص 35.

[72]- ايمان مسعودي , لندة لحرش، المرجع السابق، ص 45.

مثل الطبيعة، حيث يرى أغست كونت أنه لكي يصل إلى العلاقات الثابتة طبق ذلك التنظيم الذي يستند فيه على الاستدلال والملاحظة.73

ومن هنا فالوضعية قامت على قوانين علمية صارمة، إذ بلغ التكميم الرياضي معها ذروته فتماشت معه جنبا إلى جنب وقامت عليه، فكان العدد الرياضي والإحصائي هو عملتها المتعامل بها و مرجع لمصداقيتها، فامتدت هذه الدراسات التقنية التجريبية إلى المجتمع وتساوت الدراسات بين العلوم الطبيعية والحياة الاجتماعية، وطبقت نفس الدراسات بينهما وإن كانت جامدة أو حية فهذا لا يستثني الحياة الاجتماعية منها، ولهذا فالنزعة الوضعية حددت دور العقل ووظائفه وهذاالتشخيص.

"كونت يعطي في حديثه حول "فكرة الوضعية" تحليلا لمعنى الكلمة: وهو يماثل بين الوضعي والحقيقي والعقلي مقابل ما هو مجرد متخيل، أي ذلك الذي يتطلب اليقينية مقابل ما هو غير حاسم التام بخلاف ما هو غير معتمد النافع في مقابل العلاقة وأخيرا ذلك الذي يتطلب الصلاحية النسبية في مقابل المطلقة".74

إن الوضعية لافت مع أغست كونت تطورا في مجالها العلمي التقني، وهذا الأخير، الذي أراد أن يطبق منهجية علمية تسير عليها العلوم الطبيعية، فهو يرى في فكرة الوضعية أنها علم حقيقي بعيد كل البعد عن المثالية الخيالية، فهي يترتب عليها نتائج يقينية لها غايات هي الوصول لأكثر عدد من الحقائق بغية تحقيق أكبر قدر من المنافع، فلا يمكن لأي علم مقنن قائم على حسابات مبنية على التحليل والملاحظة، أن تخرج بالعقل إلى نتائج لا تمد له بأية منافع

والذي قدمه أدورنو نفس تشخيص هوركهايمر حيث تعاون معه في ذلك من خلال :

1–تأكيد النزعة الوضعية على ضرورة الوقوفعند حد الملاحظة والتجريب فهي لا تخرج عن نطاق العلمية وتصنيفها للوقائع متخذا في ذلك المنطقية المتراتية بغاية صياغة القوانين التي تستند إلى التكميم الرياضي لتصل بذلك إلى التنبؤ بالظواهر. .

2– ضرورة استخدام الرياضيات فهي علم رياضي يعصم هذا العقل من الوقوع في الأخطاء وهي تندرج ضمن نسق تفسير ما هو معطى والابتعاد عن كل ما لا يمد لها بصلة أي كل ما هو غير قابل

---

[73]- كمال بومنير: جدل العقلانية في الفلسفة النقدية لمدرسة فرانكفورت انموذج هربرت ماركوز، مرجع سابق، ص35-36.

[74]- يورغن هابرماس: المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر، ط1 ،منشورات الجمل، كولونيا، أملانيا، 2001 ،ص88.

للتقنين والتجريب العلمي، ولهذا تم استبعاد كل ما هو لاهوتي ميتافيزيقي والذي تندرج ضمنه الجماليات والأخلاق.

لقد رسم جدل التنوير الذي اشترك فيه كل من هوركهايمر وأدورنو سورة سوداوية تجاه التنوير فالإنسان قبل وبعد التنوير الحديث تعرض لكل أساليب الاغتراب فهو يدور في مجال الأسطورة من تكرار فقط، فهو وكالة يدور في حلقة مفرغة، وبالتالي فهما هنا كشفا عن انعكاس هذا العقل إلى نقيضه فبدل أن يكون تنوير أصبح تنوير معكوس، وبالتالي فهو يرفض جميع المؤسسات التي أنتجها التنوير سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية.75

إن العقل الأداتي هو السبب وراء تشير الإنسان، وذلك من خلال استخدامه من طرف العديد من المؤسسات التي تهدف لتحقيق غايات تفعية مصلحية متخذة السيطرة هي المبدأ في مشروعها، مما أدى بالعقل إلى النظم الموجهة وحدة فقط، وهو خضوعه لهاته المؤسسات المسيطرة بهدف اتخاذه كوسيلة وغاية لتحقيق المصالح، وهذا ما أدى إلى اغتراب الذات من الموضوع، والعكس ولا وجود لعلاقة تجمعها، وتحول بذلك العقل إلى اللاعقل وهذا ما حدث في المجتمعات الغربية فبالرغم من التطور العقلاني العلمي الذي عمدت إليه إلا أنها وقعت تحت أسر النازية والفاشية الاحتكارية الاستبدادية دون أن تنسى في ذلك الإرهاب الستاليني.76

فإن التشيؤ وعالم السلع في العالم الرأسمالي هما أمران متماثلان تقريبا، فالسلع تتخذ حياة خاصة بها بشكل مستقل عن شروط إنتاجها، إن السلع تخفي حقيقة طبيعتها للخداعة ووظيفتها هي أن تدغدغ (الوعي المنشئ) وهذه لحظة في كلية العالم المنشئ.77

ومن هنا يتبين أن أدورنو ساوى بين التشيز وعاء السلع في العالم الرأسمالي، ذلك أن هذه السلع تبين ما هو ظاهر فقط وهي تخص طبيعتها المسيطرة على وسائل الإنتاج.

وحسب أدورنو أنه مع تشيؤ الإنسان تكون العلاقة بين الأفراد متوترة، لتلمس بذلك حتى الجانب الذاتي، فيغترب هنا الإنسان حتى عن ذاته ويصبح بذلك الاقتصاد هو الأداة التي تحدد سلوك الناس , " لا شك أن مقولة التشيؤ قد كشفت عن الإغتراب العميق للإنسان الحديث في المنظومات التي وخصوصاً الإغتراب في منظومة الرأسمال وعلاقات الإنتاج الخاصة به. قد دفعت ماكس هوركهايمر

75- ايمان مسعودي، لندة لحرش، المرجع السابق، ص47

76- المرجع نفسه، ص48

77- جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة ، ترجمة فاتن الفستاين،المنظمة العربية للترجمة،علي موالا ،بيروت، ط1، اكتوبر 2008، ص359-360.

وثيودور أدورنولتأسيس نقدهما الخاص للعقل الأدائي وخصوصاً في مؤلفهما الشهير "جدل التنوير" الذي يصفه هابرماس بأنه –مؤلفهما الأكثر سواداً –بنظرية التشيؤ نحو جذريتها القصوى مع التخلي عن مضمونها التاريخاني الذي تعرض لهجوم ابستمولوجي عنيف من قبل الوضعيين والفينومينولوجيين والكانطيين الجدد وغيرهم، ولم يصمد في وجه النقد كثيراً. فقد كان الأمر الأساسي بالنسبة لهما هو البحث عن إمكان إجابات للسؤال المؤرق وهو كيف أمكن « للحضارة المتنورة الحالية أن تعود إلى حالة البربرية ومنذ البداية حملت العقلانية نزعة القضاء على نفسها في رحمها؟"[78]

حيث يقول أدورنو وهوركهايمر في كتابهما جدل التنوير:

"فمع تشيو العقل تصبح العلاقات بين الناس وعلاقة الإنسان بذاته بمثابة علاقات مسحورة إن الفرد الذابل يصح نقطة التقاء ردود الفعل والسلوكات الانتقائية المنتظرة منه عمليا أعطت الإحيائية روحا للبني، أما الانتماء للبضاعة فقط حول روح الإنسان إلى شيء، وبانتظار التخطيط الكلي يعطي الأداة الاقتصادية من ذاقها قيمة للطبائع، قيمة تحدد سلوك الناس"79

وحسب أدورنو متفقا في ذلك مع هوركهايمر، بأن الأنظمة السياسية القائمة في المجتمع الغربي وأن هذا المجتمع يتميز في وحدة تجمع بين العقل التقني من جهة ومنطلق السيطرة من جهة أخرى، ولا فرق بينهما، إذ أصبحت السياسة هنا تتكلم بلغة الصناعة من خلال منتجاتها والتي من شأنها أن تحقق نظام ثقافي وعلمي تقني، في المجتمع الغربي، لكن في الحقيقة هنا أدت هذه الصناعة الثقافية بكل أساليبها ومنتجاتها إلى الظلم والقهر التي حققته على المجتمعات، وذلك من خلال إنتاجها الاقتصادي، والمنافع التي تعود عليها، وهذا ما طبقته البرجوازية، من خلال نظامها الرأسمالي وهذا ما أدى إلى اغتراب الإنسان وتشيئه[80]، حيث يقول أدورنو وهوركهايمر :

" ففي أيامنا لا فرق بين العقلانية التقنية وعقلانية السيطرة بالذات، إنها سمة المجتمع المتغرب: فالسيارات والأفلام والقنابل تؤمن ترابط النظام إلى درجة أن وظيفتها القائمة على التسوية قد انعكست على الظلم الذي حفزته، لو نصل تقنية الصناعة الثقافية حتى أيامنا إلا إلى جعل الإنتاج إنتاجا منتقلنا إنه صناعة أشياء متماثلة، مضحية بكل ما يشكل فارقا بين منطق العمل ومنطق النظام الاجتماعي."81

---

[78]- الدكتورة منيرة محمد وسحر محمد , المرجع السابق ص 124.

[79]- ماكس هوركهامير: ثيودور أدورنو، المصدر السابق، ص50.

[80] ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق، ص48.

[81]-ماكس هوركهامير: ثيودور أدورنو، المصدر السابق ، ص143.

هذا "وقد تتبع أدورنو تاثير الاغتراب والتشيؤ في الحقل الفني والجمالي , وبين كيف تطور في ظل المؤسسات القائمة التي تحكمها العقلانية الأداتية , وخاصة في المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا , وما يسمى بالصناعة الثقافية التي تروج عبر وسائل الإعلام والإتصال والدعاية , من إذاعة وتلفزيون وسينما وصحافة , التي أفرغت الفن من وظيفته ومضمونه وحولته الى مجرد سلع أو اداة تاثير في الناس والتلاعب بهم , ومجال للاستهلاك المتعي الذي يصل احيانا الى مستوى إستثارة غرائزهم الجنسية ... قصد تشكيل إنسان نمطي ... وبهذه الكيفية أصبح الحقل الفني والجمالي مجرد أداة التأثير الاديولوجي على الناس , والترويج للقيم الاستهلاكية والتجارية ,.., فأصبح شيئا يقصد به الاستنتاع السطحي 82.

وحسب أدورنو فهو يرى أن السبب الرئيسي وراء تشيو الإنسان واغترابه هو ما قامت به البرجوازية المستندة على الرأسمالية في اقتصاد السوق، وهي المسيطرة على وسائل الإنتاج في المجتمعات وقد استند أدورنو في هذا التشخيص لهذا الواقع السياسي والاقتصادي الذي أصاب هذا المجتمع بهذا المرض أو الوباء الذي يهدف إلى السيطرة مستندا في ذلك إلى الماركسية، وبالتحديد إلى ماركس وأفكاره وكيف ناقض البرجوازية حيث أنها قامت وفرضت سيطرتها على المجتمع من خلال أنها اعتمدت في عملتها على الثمن والمقايضة من خلال قانون العرض والطلب، وبالنسبة للسلع في ظل النظام البرجوازي، لم يكن للفرد الحق في تحديد الثمن الحقيقي الذي يرجع إلى قيمة العمل والاستخدام، وإنما السوق هو الذي يتولى هذه المهمة وتكون مجردة وليست واقعية.

كما أن هذه البرجوازية في ظل هذه العلاقات أوهمت المجتمع من خلال عملهم أنتم فاعلون في هذا المجتمع، لكن على العكس من ذلك، فهي تعيش من فائض هذا المجتمع، وتصبح بذلك السلعة هي الفاعلة، من خلال طابعها الشمولي الذي تفرضه وبذلك فهي توقع الذائية الإنسانية الفاعلة، وتحد من الحرية، وكذا فإن البرجوازية تؤدي بالإنسان إلى اغترابه وتشينه.83

تحول الإنسانية إلى اللاإنسانية وبروز الوحشية في المجتمع عامة، سواء كان رأسمالي أو شيوعي ومن هنا أن السبب الرئيسي في تشيو الإنسان واغترابه هو العلاقات السياسية والاقتصادية المتوترة في

---

[82]- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهامير إلى أكسل هونيث،نقلا عن ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق ص 49.

[83]- عبد الغفار مكاوي: حوليات كلية الآداب النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، نقلا عن ايمان مسعودي , لندة لحرش ، المرجع السابق، ص 50.

العالم الغربي، خاصة ما قامت به النازية والفاشية في بسط حكمها، وبهذا فإن هذا الحيز العلمي الذي دعا إليه التنوير أوهم العالم فقط بمثل الحرية. 84

84- كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، المرجع السابق، ص92 .

المبحث الثاني: النقد الجذري الراديكالي للعقد الأداتي.

إن أدورنو يرى بأن العقل الغربي وقع في أزمة ما كان يريد التحرر منه وهو اللاعقل، المنغلق على نفسه، ذلك من خلال الحساب الرياضي الذي يتصف به ويخرجه ليفرضه على الواقع الخارجي بمعنى أن التكميم التقني الرياضي تسرب حتى إلى المعارف الفلسفية، أي أن الفلسفة هنا تعتبر جوهر المجتمع أصبحت خاضعة لهذا العقل وأداة له، دون أن ننسى في ذلك أنها مست أيضا الذات والموضوع، وكل ما هو يصلح أن يكون وسيلة يتواصل بها الإنسان مع عالمه الخارجي إذ أن هذا العالم لم يبقى كما كان عليه وإنما شهد تحول للعالم الطبيعي بفعل سيطرة الإنسان على الطبيعة وتحول في العالم الاجتماعي بفعل سيطرة الإنسان على الإنسان.85

إن أدورنو في نظريته النقدية اتجاه التنوير، وتقده الراديكالي لهذا المشروع باعتبار أن التنوير جاء ليحرر الإنسان الأول من أسر الطبيعة وكان عبدا لها، إلى أن انعكس عن هدفه الأصلي وانغمس أكثر فأكثر في هذا التسلط، وأصبح هذا الإنسان تحت أسر للمجتمع المعاصر، لكن أدورنو هنا لم يقصد بنقده للعصر وإنما للمجتمع المعاصر، باعتبار المجتمع هو الفاعل في العصر، وعندما طغت لغة التنوير المزيفة لم يستطع هذا العقل الناقد للمجتمع أن يعمل بمصلحته النقدية، ذلك لأنه تحول إلى اللاعقلانية، وأدخل المجتمع مرة أخرى في نوع آخر من أسطورة جيدة يحكمها الكم والتكنولوجيا.86

عندما نتحدث عن فلسفة الهوية نقصد بها العقل التماثلي، الذي كان هيغل (Higel) من الأوائل الذين شرعوا لها فلسفيا بوصف ذلك التطابق بين الذات والموضوع، الذي يجعل من هذا العالم في وحدة واحدة، لا انفصام له، وأن العقل هو الذي يحكم التاريخ، ومن هنا جاء أدورنو لنقد هذا العقل التماثلي أو كما نقول الهوية، مستندا في ذلك إلى آراء زميله هوركهايمر الذي رفض المبدأ الهوي الذي سار عليه هيغل، باعتبار أن هذا الأخير الذي يرى وحدة هذا العالم وإنما هي في حقيقتها مبنية على رأى منطقية ميتافيزيقية، أي أيضا بعيدة كل البعد عما يجري في التاريخ الواقعي، ومن هنا اكتشف أدورنو مستندا على أفكار هوركهايمر، أنه لا عقلانية للتاريخ وقامت بذلك النظرية النقدية، ناقدة بذلك

85- كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، المرجع السابق، ص93.
86- ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق، ص50.

الإيديولوجيا والربط بين الذات والموضوع، فهي لم تبقى نقدية فقط لهذا العقل التماثلي وإنما نقدية للوضعية الأداتية.87

إعلان أدورنو على مبدأ اللاهوية نقيضا لهيغل الذي جاء بمبدأ الهوية من خلال جدله السلبي الذي يرفض الإيجابية والتأكيد، وكل ما له علاقة مرادفة به، كالتناقض والتباعد والتنافر، وهو الأساس الذي ارتكز عليه أدورنو في عمليته النقدية.88

الأفكار الأنا قدرة على ألا تتطابق مع الموضوع الخارجي الواقعي، أي أن عملها وما تقوم به هذه الأنا يخالف ما يكون في هذا الموضوع وموضوع التطابق هذا هو باطل، ذلك أن هذا الوعي يستند في أفكاره غالبا على الذات وجعل منها موضوع دراسة، في مقابل أنه في بعض الأحيان فقط يستند هذا الوعي للموضوع الخارجي وقد استند أدورنو إلى هوسرل في هذه العملية التخالفية بين الذات والموضوع، وكيفية تتم عملية الانتقال

من التماثل بين الذات والموضوع إلى علم التماثل بين الذات والموضوع من خلال أن الموضوع الخارجي للواقع، عبر هذا التاريخ لا يمكن أن يبقى على وتيرة واحدة، وإنما هو في تغير وتحدد، وهذه الذات دائما تقوم بعملية نقدية لهذه المواضيع الواقعية، فكيف إذن يمكن أن نقول بأن هناك تماثل بين الذات والموضوع، والواقع يكشف العلاقة اللاتماثلية بينهما.89

واستند أدورنو أيضا في عمليته النقدية إلى كيركجاد الذي أعد دراسته عليه، ذلك من خلال أن كيركجاد الذي رفض ذلك التطابق بين الذات أو كما يقول هو العقل والداخل نقيض الموضوع أو الواقع والخارج، حيث أن أدورنو هنا عندما نقد هيغل في نظرية الهوية، لم ينتقل إلى اللاعقل وإنما أصبح مدعما أكثر بالعقلانية، واتجه إلى اللاتتماثل أكثر فأكثر، فهناك ما يوجد في الواقع عكس ما تفكر فيه الذات، وهنا لم يبقى أدورنو عند حد كيركجاد، وإنما طور نظريته النقدية من خلال استناده للجمالية، التي تستند إلى الخيرات الحسية، ولا تذهب إلى ما سوف يكون، وإنما تستند إلى معرفة مباشرة بما هو كائن، ذلك أن كيركجاد وقف عند حد الذات كما فعل هيغل وهذا ما أدى بأدورنو إلى تجاوز هذا بالاستناد إلى الحل الهوسرلي في نقد العقل الذي يهوى تلك الوحدة التي تجمع بين الذات والموضوع.90

87-المرجع نفسه، ص51 .

88- ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق ، ص51

89- المرجع نفسه، ص52

90- المرجع نفسه، ص52

ويبين أدورنو بأنه لا يمكننا الحديث عن جدلية موجبة، وما يمكننا الحديث عنه هو جدلية سالبة، من خلال العقلانية النقدية التي قامت ضد العقلانية التنويرية ورأى بأن هيغل كان له دور بالغ الأهمية في تبلور نظرية الهوية المتشكلة في الروح المطلقة، حيث قدم هيغل مجهودات ليجمع بين الذات والموضوع، في وحدة مصالحة بين العقل والواقع، وقد بين أدورنو في جدليته السالبة أن هذا العقل حاول استغلال وتشويه ما يضمنه هذا الواقع، وما قام به هيغل في هذه الثنائية في الجدلية الهيغلية لا يمكن أن تخرج بالإنسانية إلى حلول وإنما يصيب فقط هذا الوعي بالدوار والتعاسة.[91]

ومن هنا نجد بأن أدورنو كان متفقا مع هوركهايمر أشد الإتفاق في نقد الهوية التي تقوم على الأداتية، والنظرية النقدية جاءت خاصة ضد هذا العقل الأداتي الذي تعود جذوره إلى ديكارت.

إزاء هذه المحاولة من جانب الذات "لتملك" الموضوع وإشباعه بالفكر وهي محاولة تعكس وهم الوحدة أو الهوية التي يتصور المجتمع أنه في التوصل إليها، يطالب أدورنو بالحفاظ على "عدم الوحدة الموضوع أو عدم هويته. ... وبقدر ما يسعى التفكير لتحقيق هذا الهدف يصبح تفكيرا جدليا، كما يصبح الجدل هو الوعي "باللاوحدة".[92]

يوضح هنا أدورنو أنه في البداية تقوم الذات بعمليتها الفكرية بدراسة هذا الموضوع وفهمه بغية الاندماج معه والاستحواذ عليه في وحدة واحدة هي مبدأ الهوية، وهنا نجد أدورنو مناقضا تماما لهذا الوضع من خلال التفكير بوعي اللاهوية وهنا يدخل فيما يسميه بالجدل.

لقد وضح منظري فلاسفة مدرسة فرانكفورت أهمية التقنية ونجد خاصة الجيل الأول أمثال ماكس هوركهايمر و ثيودور أدورنو وهربرت ماركوز، تبنيهم لمسألة التقنية أو ما تسمى بالعقلانية التقنية (La rationalite technique) كان من أهم الاهتمامات في نظر و تحليل الفيلسوف مارتن هايدغر (Matin Heidegger) و بالتالي فقد ركز هايدغر عن حقيقة هذه التقنية وهذا ما يظهر في منهجهالظواهري وخاصة الذي يستند فيه إلى الماهية باعتبار أن التقنية في رؤيته أن تلك المعرفة التي تتولد لدينا هي في مضموها وأساسها تعد تقنية، ذلك أن العامل العملي الممارس والذي كان يستخدمه الإنسان في القديم، أصبح في عصرنا غير مقبول، لأن نمو المعرفة العلمية قد تحول هو الآخر إلى جانب أداتي فقط.[93]

---

[91]- ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق ، ص53.

[92]-المرجع نفسه ص 53.

[93]- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهامير إلى أكسل هونيث، الدار العربية للعلوم والنشر، بيروت، لبنان، ط1،2010، ص53.

"إن التقنية في نظره ليست ذلك الجانب التطبيقي العملي من المعرفة العلمية بل هذه المعرفة نفسها هي في جوهرها تقنية , واذا كانت هذه الاخيرة مثلت في الماضي ذلك الجانب التطبيقي والعملي الذي حققه الانسان.. حيث تطورت المعرفة العلمية واصبحت ذات طابع تقني – أداتي –".94

ولقد أعطى فلاسفة مدرسة فرانكفورت أهمية بالغة للعقل الأداتي، أو ما أصبح يطلق عليه اسم العقلانية التقنية لأنها من أهم الإنجازات الفلسفية وهي معرفة سائدة خاصة في المجتمع الصناعي.95

إن الرؤية الفلسفية لمسألة التقنية في العصر الحديث تعتبر كعامل أساسي، للهيمنة والسيطرة لأن منظري ومفكري مدرسة فرانكفورت يتأثرون برؤية هايدغر للتقنية كون أن مولفا جدل التنوير "هوركهايمر وأدورنو" بينا حالة هذه التقنية في المجتمع المعاصر يمكن توضيحا فيما يلي:96

أ– إن الهدف من هذه التقنية هو الوصول إلى الانتفاع بخدمة الإنسان، يهدف الاستثمار كوها تعد جوهر العلم والمعرفة. ا ب تأكيد كل من هوركهايمر وأدورنو بأن التقنية تمثل في العصر الحديث مكانة أساسية

وخاصة باعتبارها هي المصدر المهم في تطوير المعرفة العلمية لأنها لم تعد في العصر القديم تهدف إلى خلق مفاهيم جديدة فقط، لكن أصبحت تماف إلى الاستخدام الوظيفي للإسهامات الناجحة في مجال الممارسة العملية.

وكل هذا أدى بأدورنو وهوركهايمر إلى استخدام العقلانية التقنية لأنها تقوم باستخدام جميع الطرق دون الاستفسار عن مصدر تلك الأهداف والهدف من هذه العقلانية التقنية هو هدف مصلحة ومنفعة فقط، لأنه يصل في نهاية الأمر إلى السيطرة والهيمنة وهو موافق لشكل العقلانية التقنية.

إن هذا الجانب الأداتي والمتمثل في العقل التقني والعلمي لا يتقاطع مع المجالات والجوانب الأخرى مثل جعل العديد من الوقائع خاضعة هي الأخرى لتلك القواعد والمعايير الأساسية، وبالتالي فإن أدورنو قد أدى إلى جعل مختلف العلوم يغلب عليها الطابع الرياضي، وقد نتج عن هذا الطابع الرياضي والعقلية، المساواة بين الفروقات والاختلافات في ظل تمسكه بهذا العقل الأداتي فإنه حتما

---

[94]-المرجع نفسه، ص55.

[95]- عبد الغفار مكاوي: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، إمؤسسة هنداوي سي اي سي المملكة المتحدة ، 2017ص27.

[96]- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهامير إلى أكسل هونيث، مرجع سابق، ص57-58.

غير مسؤول عن إجبار مختلف تطلعاته على المجتمع وبالتالي فهو قادر أيضا على إثارة السيطرة والهيمنة على الطبيعة من جهة والمجتمع من جهة أخرى.97

في منطلقات الوضعية ونتائجها لم يقم منظري مدرسة فرانكفورت بالقيام بنقد الجانب التقني فقط والمتعلق بالجانب العلمي، وإنما كانت لهم نظرة أخرى مناقضة تماما لحرية الفرد، وهذا ما يظهر لنا في بروز الجانب السياسي، وبذلك تصبح الفاشية ركنا أساسيا في ذلك الصدام الطبقي، وقد بين "أدورنو" بأن الجانب الرأسمالي قد يؤدي إلى خلق شخصيات أنانية، إنها تؤدي هي الأخرى إلى خلق وتوليد القلق، باعتبار أن الفاشية قد كان لها اهتماما كبيرا وواضحا في ذلك التعلق الكبير الذي أعطته لتلك المنظمات الجماهيرية، باعتبار أن أدورنو كان إقباله على ذلك الاختلاف والتعدد.98

كما نجد أن أدورنو قد قام بنقده للنزعة الهيجلية لأنها هي الأخرى قد قامت في نظره ميمنة | العقل الأداتي، وذلك من الجانب الشمولي، أو كما يطلق عليه هيجل باسم "الروح المطلق "وفي رؤيته هو ذلك العقل الذي يخص العالم وحده، وقد عير هيجل "في كتابه "فينومينولوجيا الروح المطلق "كون أن هذا العقل المطلق لا يمكن أن يكون كما هو فعلا لكن يكون على نفسه بنفسه فقط، بيد أن أدورنو قد بين في كتابه أيضا ا"الجدل السلبي على رفضه لذلك التكامل، كون أن ما يسميه هيجل بالجدل الحقيقي وما يطلق عليه أدورتو بالجدل السلبي أمام الجدل الإيجابي لهيجل، باعتباره يرفض ذلك التأليف والتركيب، لذلك قد بين ووضح هيجل بأن ذلك العقل المطلق، حينما وضح أن جميع المقولات العقلانية هي واقعية، قد أدى بأدورتو هو الآخر إلى القول بضرورة ربط العقل بالسيطرة والسلطة.99

وقد انطلق أدورنو نقده للوضعية حيث " ويأتي نقد أدورنو اللوضعية كنظام مفهومي المعرفة ، لأنه يشكل سلطة رمزية. يرفعها المجتمع المعاصر ، ودور الفلسفة – عند إدورنشو – هي إعادة النظر في الموجود والمألوف ، ولا تفصل بين العلوم الاجتماعية والفلسفة ، واختلاف أدورنوا مع الموضعية بد التي يراها هوركهايمر التكنوقراط الفلسفية . ليس اختلافا حول حدود المجالات المعرفية ، أو على موقع المعلم في المجتمع المعاصر ، وانما هو اختلاف جوهرى فى الفهم القضايا الواقع والمجتمع والمحداثة ... وهو اختلاف بين منطق لا يعزل الظواهر الانسانية عن مكوناتها الداخلية والخارجية ، وبين منطق مكرس لحقل معرفى واحد ، وأدورنو لا يفصل بين النظرية والممارسة ، بينما الوضعية تضييع

97- عبد الغفار مكاوي: مرجع سابق، ص 29.

98- كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، المرجع السابق، ص85.

99- المرجع نفسه، ص 22-24 .

منطقا لنظرية العلم ولا تتجاوز هذا لمحاولة تأويل الواقع ، ولا تتفاعل مع الأسئلة التي تثيرها العلوم الاجتماعية".100

بعدما قام أدورنو بنقد فلسفات الهوية القائمة على التماثل بين الذات والموضوع وقام بنقد الوضعية القائمة خصوصا على النسق الرياضي، وصل إلى مرحلة من الأسئلة هو طبيعة العلاقة بين الواقع والإنسان في ظل النسق الاجتماعي، فقام أدورتو بالتوجه النقدي لهذا المجتمع، حيث أن هذا | الأخير لم يكتفي فقط بالتحليل الاجتماعي للوضع الراهن الواقعي وإنما قام بنقد هذا الواقع وما طرأ | عليه، إذ يرى بأنه من خلال التقسيم بين العقل والتجربة يصاب هذا المجتمع بنوع من الفساد الذي أصاب الوعي الإنساني، حيث أن أدورنو في عمليته النقدية هذه تطرق إلى هذا الوضع اللاإنساني الذي مس المجتمع من خلال التقنين الرياضي واللاعقلي، وتبيان الوجه الخفي للواقع من أجل نقد هذا المجتمع لتغييره دون أن ينخرط فيه، وإعادة للإنسان مكانته الإنسانية وحريته التي سلبت منه، في ظل الصراعات التي وجدت في هذا الواقع عبر المراحل التاريخية والتي بسببها أدى إلى اغتراب الإنسان وتشينه.101

حيث أن أدورنو من خلال جدل السلب وقف على التناقضات والتمزقات التي تصيب هذا المجتمع، وهو وقف على العلاقة بين الذات والموضوع، وكيف نشأ مبدأ التسلط التي تفرضه الذات على الموضوع وتشمله في وحدة واحدة، لتحتوي عليه من خلال مبدأها المثالي الذي تقوم عليه حسب هيغل، لذلك فهذا المجتمع لا يرى ما الذي حل به من الفساد والاغتصاب والسيطرة التي حلت عليه، إذ أنه أصيب بالتضليل، ومن هذا انطلق أدورنو لتحليل الوضع المأساوي الذي حل بالواقع الإنساني، ليخرج بحلول تضمن موقع الموضوع بالنسبة لتسلط الذات عليه وعدم الوحدة بينهما، فوجد نفسه يقيم عملية جدلية بواسطة الفكر، وهذه العملية العقلية تدرك المطلب اللاواحدي، من خلال وعيها التام بذلك، من خلال السلب الذي يخرج به للإيجاب، فوظيفة الجدلالسلبي هنا هو جعل هذا المجتمع الإنساني قادر على التحرر من أشكال الاغتراب الذي يصيبه من خلال مبدأ الاختلاف.102

ولهذا فالمنهج الفلسفي في جوهره لدى ادورنو هو معارضة الواقع ، وتعزيز الصراعات التي تكشف عن اغتراب الانسان وتشيؤه ، ولذلك فهي تركز على كشف هذا التطابق الخادع ، والاهتمام بالوسائط

100-رمضان بسطويسي ،علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو نموذجا، المرجع السابق، ص52.
101- رمضان بسطويسي ،علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو نموذجا، المرجع السابق ، ص53-54.
102- المرجع نفسه، ص 72 .

التي تساعدنا في نقد العقل باستمرار خلال المراحل التاريخية ، والفكر هو مضمون تاريخي ، وهذا جعل أدورنو يركز على أربع نقاط تميز منهجه الفلسفي103:

"–العقلانية : وهي ونقد العقل لذاته دائما من موقع مستقل ، وهذا لا يتأتى إلا باستيعاد لمؤسستين همنا الدولة والحزب لان الدولة، والحزب كلاهما يستخدم العقيل الإداتي ويستبعد العقلانية في مفهومها الشامل.

–السلب : فالفلسفة لديه هي تفكير بالسلب . ، وتستمد شرعيتها من سلب الواقع لثباته ،. واعادة انتاجه ... وهذا السلب يحدد الوظيفة الجوهرية للفلسفة التي تطرح أسئلة دائما ، تشيعي من خلالها للتحرر الانساني في كل ابعاده الجسدية والسياسية والاجتماعية والفكرية .

–الوسائط : إن نقد المجتمع ، لا يغنى لقد المفاهيم التي يرتكز إليها هذا المجتمع فحسب ، وانها تعنى – أيضاً – نقد الوسائط الثقافية التي تعبر عن صنبورة الحياة اليومية ، فليس هنالك مصبيل بين صورة الفكر ووسائطه .

–المادية : استفاد أدورنو من الماركسية ، في تحليل الطابع الاجتماعي للفكر ، وكل فكر هو واقعة تاريخية أيضا ، ولكنه لا يقف مع الماركسية تماما ، وانما يعيد نقدها من الداخل ، وكل واقعية مادية في الواقع الاجتماعي تشير إلى عناصر فكرية ايضا."[104]

ذلك لأن أدورنو يرى بأنه لا طائل من الحقيقة الازدواجية في نظرية الهوية التي تدعيها الأنساق الفلسفية المثالية والعقلية والوضعية، ويرى هذا الأخير أنه إذا ما نظرنا إلى الوضع الذاتي الذي يقوم عليه الموضوع، هذا لا يجعل منه تابعا لها، ذلك لأنه موضوع خارجي واقعي منفصل عنها تماما إذ هو معطى لها، لهذا قام أدورنو بجدل السلبي الذي يكشف عما آلت إليه هذه الأنساق التي تدعي الشمولية وتضع العالم في قالب عالمي عقلاني، ويرى أيضا أنه لا يجب المصالحة بين الأضداد والجمع بينهما وتوحيدهما، وإنما هو يتحدث عن الفصل والتكامل الذي يحمي هذا المجتمع من الأخبار والخوف والرعب الذي يعيشه، بفعل ما تقوم به البني المنطقية والوضعية، ففي نظره لو أدركت هذه الذات بأن الموضوع مختلف عنها أشد الاختلاف، فلا يمكن أن يوجد رابط يجمع بينهما في وحدة يجعل منها هوية واحدة، لتخلت عن طمعها في السيطرة والعلو والاستحواذ عليه.105

103- المرجع نفسه، ص54.

104- رمضان بسطويسي ،علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو نموذجا، المرجع السابق ،ص 54-55

105- ايمان مسعودي ، لندة لحرش ، المرجع السابق، ص59.

ومن هنا يتوجه أدورنو في نظرية النقدية من المشروع السلبي المتمرد القائم على التحرر وهو مشروع بلغ آفاق مغايرة لما هو موجود، خاصة أنه يقوم على اللاهوية، التي تتصف باللاتماثل عكس لما هو موجود من الهوية والتماثل، وهذا من أجل الخروج من الإيديولوجيا القائمة على التضليل اليحقق بذلك الحقيقة التي يستقيم بها المجتمع، ويفك قيود العنصرية والهيمنة، وديالكتيك السلب هذا يطمح لأن يستحضر الفكر الهوي إلى دائرة الفكر الجدلي ليبحث ويجد من خلال هذه السلبيات لإيجاد الغيرية والمناسب الذي يستطيع أن يقوم عليه المجتمع بعيدا عن الإيديولوجيا الذي أصبح هذا الواقع بسببها كفيف، لكن أدورنو بالرغم ما قام به من تجاوز الهوية، إلا أنه يجد نفسه ليس خارجا عنها وذلك من خلال أنه استخدم نفس الخطوات في التحليل كلا من الخطاب المفهوميوالاستدلالي، وهذا ما أدى إلى عجز النظرية النقدية التصدي لهذه الإيديولوجيا، وهذا ما دفع بأدورنو إلى التوجه للأفق الفني كبديل لإيجاد الحلول، ضمن النظرية الجمالية.[106]

وإن القاعدة الأساسية لهذا الدستور الفلسفي الذي أقامه أدورنو هو توجهه النقي للحداثة التي سادت في المجتمعات الصناعية وقامت على التكنولوجيا التي مست القن خاصة وارتبطت به على وجه الخصوص، إذ قامت على التقنين العلمي والتكنولوجيا الآلي، وهذا ما عرف بصناعة الثقافة فعندما كان الإنسان الفنان ينتج الفن لذات الشخص، أصبح في القرن العشرين يفعل هذه التكنولوجيا متصل بالعامة من الجماهير، من خلال العرض الإعلامي.[107]

[106]- زيتوني خالد، المرجع السابق، ص33-.34

[107]- رمضان بسطويسي ، علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو نموذجا، المرجع السابق، ص164.

المبحث الثالث: تجاوز العقل الأداتي عند أدورنو.

بداية يمكن أن نقول بأن أدورنو توجه إلى الجمالية لتحقيق الحرية الإنسانية، من خلال أنه بدأ من حيث انتهى هوركهايمر الذي عجز عن توسيع دائرته النقدية لتسع العالم عامة والواقع الألماني خاصة، ذلك لأن أدورنو تماشى جنبا إلى جنب مع هوركهايمر في نقده للعقل التنويري، الأداتي والنزعة الوضعية، إلا أنه وجد بأن هوركهايمر أصبح ذا نزعة تشائمية، إذ أنه لم يرى أي طريق نقدي المعارضة هذه الاتجاهات لهذا اتجه في آخر أيام حياته مبتعدا عن العقلانية النقدية ليصبح منظر ديني، باعتبار أنه يهودي، حيث رجع إلى مبدأه وجعل من اللاهوت طريقه الجديد الذي يسير فيه، فحسبه أنه لا يقبل أية فلسفة كانت مادامت غير متصلة بالجانب الديني، ولهذا فهو رجع من إعلاء مكانة كانط وهيغل على ماركس، ولهذا أدورنو انتابه القلق واليأس من هذا الوضع المأساوي الذي حل بالمجتمع الحديث.108

وبهذا يتضح أن اهتمام أدورنو بالجمالية كان مرتبطا بمجمل أفكاره ومواقفه النقدية للمجتمع القائم الذي تحكمه العقلانية الأداتية التي غدت كرس السيطرة والهيمنة على الناس بصورة شاملة من خلال المؤسسات الاقتصادية والسياسية والإدارية والإعلامية التي تشبه آلات هائلة يحاول الناس أن يكيفوا أنفسهم معها، ولهذا يمثل الفن عنده خلاصا من هذا الوضع المأسوي الذي يعيشه هؤلاء الناس، بل أصبح الفن هو البعد الوحيد الذي يمكنه إنقاذهم ونقلهم إلى وضع إنساني جديد مغاير لما هو قائم في مقابل العقلنة الأداتية ذات الطابع الشمولي أو الكلي الذي يوصف باللاحقيقة109

ومن هنا فإن أدورنو لا ينقد العقل من حيث هو عقل بل هو ينقد ذلك العقل الأداتي الذي نجم عن المشروع التنويري القائم على البربرية في المجتمعات الإنسانية، وما قامت به النازية والستالينية الشيوعية، فإن أدورنو هنا يقوم بالنقد الجذري الراديكالي لهذا العقل ويحدث معه قطيعة ويعطي البديل، هو العقل الجمالي، الذي يقوم بالنقد لهذا المجتمع، ذلك لأن الفن مجاله أوسع من أن ينطوي على ذاته، لأنه يقوم بدراسة هذا الواقع الاجتماعي وما يحيله من تناقضات لأنه لا توجد وحدة فأينما يوجد فن يوجد التميز والاختلاف، لأن هذا العقل الجمالي يسعى لأن يحقق للإنسان السعادة على خلاف ما كان يعيشه في ظل القهر والعوز التحرري في العقل التقني، لأن الفن يخرج بالإنسان إلى طموح يتحدى كل ما هو موجود في الواقع، لأنه يأتي بكل ما هو ليس موجود وغير متعدد والسعادة هنا التي

108- توم بوتومور، مدرسة فرانكفورت ايمان مسعودي , لندة لحرش , نقد العقل لدى الجيل الأول لمدرسة ،ص 60

109- كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهامير إلى أكسل هونيث، المرجع السابق، ص 96.

يهدف إليها الفن تكمن في تحقيق الحرية التي غابت عندما تغرب الإنسان والسبيل الوحيد لتحقيق هذا، هو الأعمال التي يقوم بها الإنسان وهي فنية وجمالية.110

لهذا فإن أصحاب النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، خاصة أدورنو فهم يرون بأن الفن هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع الإنسان المعاصر أن يحقق حريته في هذا الواقع المعيشي، وبفضله يستطيع أن يقف في وجه التقدم العلمي التكنولوجي الذي أفرزته التقنية وسيطرت على الإنسان، فهم يرون في الفن نشاط يقوم به الإنسان من أجل التحرر، ليعيد لهذا الكائن مكانته الإنسانية، بسبب ما أقره العقل الأداتي من قمع وهيمنة، فيرى أدورتو أن هدف الفن هو الخروج من هذه التناقضات التي سادت في هذا المجتمع وذلك من خلال رفعه عما يجري في الواقع خاصة السياسي، فعندما أدمج الفن خاصة مع المجتمع الليبرالي فقد خاصية الأصالة، ذلك لأنه أصبح أقرب للسيطرة وفقد خاصية الإبداع من أجل التحرر، ونزح إلى المادية لتحقيق أكبر المنافع، وهذا ما جاءت به الرأسمالية، وأصبح السوق يتحكم في الفن على أساس أنه سلعة، لذلك تم تزييف هذا الفن وأصبح يباع ويشتري من خلال إخراجه للواقع الجماهيري، صحيح أنه ذاع صيته ليشمل العالم في رأي النظرية النقدية لكنه استحوذت عليه المؤسسات الاقتصادية، وخرج عن طابعه الاجتماعي، فيرى أدورنو أنه يجب إعادة هذا الفن إلى خاصيته الإبداعية الأولى.111

بمعنى أن أدورنو في مقابل العقلانية المزيفة التي أشاد بها عصر الأنوار، جاء بالعقلانية الجمالية التي تقوم على الإبداع لكي يفتح أفق جديدة للعالم الإنساني، وتنتشله من الواقع المزيف، والذي بسببه اغترب الإنسان في واقعة الاجتماعي، والسبب في ذلك الأنظمة الشمولية والتوتاليتارية وما تفرضه هذه المؤسسات من القمع والهيمنة العقلية ليغير بالفن الوضع القائم.112

لهذا نجد بأن أدورنو عرف بدفاعه عن الفن في ظل العقلانية الجمالية، ولهذا اشتملت أبحاثه | الفنية فيما يخص الأدب والموسيقى والرسم، فأدورنو يرى بأن هناك نوعين من العقلنة، عقلانية خارج الجمالية، وعقلانية داخل الجمالية، فأما الأولى هي التي طغت عليها سمعة التكنولوجية في المجتمعات المتقدمة صناعيا المرتكزة على التقنية العلمية، أما بالنسبة للثانية، العقلانية داخل الجمالية

110- كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، المرجع السابق، ص29-30.

111- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهامير إلى أكسل هونيث، **ال**مرجع السابق ص 70-78.

112- كمال بومنير: قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، تامرجع السابق، ص42.

وهي المتعلقة بالفن ومتأثرة فيه وهو خاضع لها، ذلك لأن المادة الفنية ليست منفصلة من المعرفة العقلية .113

حيث "يؤكد الفن التفرد والاختلاف والتميز، وبواعثه منوطة بعوامل أو شروط ذاتية، لكن هذا لا يعني انكفاء الفنان على ذاته فيقتصر عليها، بل يسمو عاليا ويستجيب للحياة الاجتماعية لأن الجمالية كلحظة نقدية تضمن قيام نقد لوضع لوظيفة الفن من داخل المجتمع نفسه، وكمجال للتعبير عن التناقضات الاجتماعية القائمة فيعطيها معناها لا من خلال وصف الواقع الاجتماعي لأن الفن حسب أدورنو لا يتصل اتصالا مباشرا بهذا الواقع على نحو ما تفعل العقلانية الأداتية، وتباعده عن الواقع هو الذي يكسبه قوته النقدية وقدرته على التجاوز، ولهذا يجب أن ننطلق من الشكل الجمالي بدلا من أن ننطلق من الواقع، لأنه بإمكان أن يعيد الفن صياغة العالم على نحو مغاير تماما. "114

يرى أدورنو في الفن الأداة والوسيلة التي تحرر الإنسان من الهيمنة والتسلط، فبعدما كان الأورغانون هو القاعدة الأساسية التي اعتمدت عليها الفلسفة منذ بداياتها الأولى، قد عرف تغييرا جذريا ومنحنى آخر مع أدورنو وهو ما تمثل في الفن، هذه العلاقة المجسدة بين الفنان والفيلسوف إنما ترجع إرهاصاتها الأولى إلى النزعة الرومانسية وبالأخص عند الفيلسوف الألماني نيتشه حيث تدعو هذه الأخيرة على تمجيد كل القيم والمثل العليا للحياة والجمال بعيدا عن العقل باعتبارها أداة تحرر من الميتافيزيقا، وكان الهدف الذي يسعى له نيتشه من خلال مجهوداته إلى توسيع دائرة الفن وإخراجه من دائرة الفنون الجميلة إلى أداة يستخدمها الإنسان للتحرر والانفتاح على عالمه كما يرفض نيتشه أن يحكم على الفن من وجهة نظر المشاهد لا المبدع الخالق للعمل الفني.115

وذلك لأن نظرية أدورنو الجمالية تستند الى فكر جمالي يقوم على مناهضة الواقع ، مستخدما التفكير الجدلي في تأسيس بنيـة مستقلة للعمل الفني ، وبالتالي لا يمكن استنطاقه بما ليس فيه ، من خلال رفضه الاحالة المتبادلة بينة وبين الواقع ، لأن العمل الفنى يقوم جوهره على تلك القطيعة التي يقيمها مع المباديء التي يقوم عليها الواقع الفعلى ، وخلق منطق آخر . الذي يتمثل في تقنيات الشكل في العمل الفني ، نواجه به منطق التسلط الذي يمارسه العقل في الحياة اليومية . ولكن ما الذي دعا ايجلتون الى اطلاق صفة « علم الجمال السياسي » على جهود أدورنو الجمالية ، وهي التي تسعى

113- كمال بومنير: الجماليات المعاصرة الاتجاهات والرهانات، ترمجة ماركس جيمنري، دار الالمان، الرباط، 2001 ،ص110-111.

114- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهامير إلى أكسل هونيث، المرجع السابق ص96.

115- ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق ص63.

للتحرر من أسر المواقع ، فهل هذا التناقض بين القصد الجمالي ، والتقويم الجمالي ، هو تناقض ظاهري ، فالقصد من الفن بشكل عام لديه هو مناهضة الواقع ، وكشف المكبوت والمقموع نيسه عن طريق ادخاله في علاقات جديدة ، مختلفة عن تلك العلاقات التي يقوم عليها الواقع الفعلى ، وهذا هو الجانب السياسي ، الذي جعل ايجلتون يصف محاولة أدورنو ، على أنها استطيقا سياسية ، ولكن هذا الطابع السياسي ، لم يغفل استقلالية العمل الفني ، فجدليته تقوم في هذا التضاد ، في مناهضته للواقع عن طريق الخروج من أسر القوانين والعلاقات التي تحكمه الى مجال يخلق قوانينه وآلياته الخاصة ، وهذا المجال هو الذي يحكمه التقويم الجمالي .[116]

ومن الواضح أن العمل الجمالي والعمل الصناعي قد أصبح موضوعا آخر للتمييز بين نوعين من جانبين ألا وهو العمل الفني وأيضا العمل الصناعي باعتبار أن الهدف من الأعمال الفنية حتما هو تحقيق تلك المتعة واللذة، والهدف أيضا من تلك الأعمال الصناعية هو تحقيق المصلحة أو ما يسمى بالمنفعة.117

ورغم أن هذا الاهتمام الكبير هذه الأعمال الفنية، ومدى استخدامها الواسع حتى في تطوير مختلف عمليات الفنون وغيرها وهذا التطور بالذات أدى إلى الصدام بين موضوعين، وبعدين جماليين يظهر بين كل من أدورنو وبينيامين في هذا الصدد، كون أن أدورنو يؤكد على أن التحيز والانفراد بالنفس هو مصدر البعد الفني، في حين يؤكد بينيامين هو الآخر أن التطور والتكنولوجيا وسيلة فعالة لفهم الفن وتعميمه لأن في رؤيته هي العودة إلى الأصول التاريخية للفن والفن لا يمكن قطعه عن تلك المرجعيات الأصلية، وما يخص بالذكر أيضا التأكيد على أفول الهالة وهذا المصطلح يعني أيضا مصدر ونور هذا العمل الفني، وهذه الحالة مصدرها يوجد في تلك الطقوس وغيرها، ويتضح أنه في البداية هذه الحالة كانت تتسم بالبعد الديني، وتم هذا التغيير من الدور الطقوسي إلى الدور الديني وذلك في الجيل القريب فقط.118

ذلك أنه في العصر الماضي كانت الأعمال الفنية تتميز بطابعها الانفرادي، وبالمقابل من ذلك ظهرت تلك الوسائل الجديدة والتطورات التقنية قد ساهمت إلى حد كبير في التخلص من تقديس الفنون وهذا ما أدى إلى ضرورة الاستنساخ.119

---

[116]- رمضان بسطويسي: علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو منوذجا، المرجع السابق، ص75

117- كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، ص105.

118- المرجع نفسه، ص106-107.

119- كمال بومنير: قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، المرجع السابق، ص52.

وبالمقابل من ذلك يرى أدورنو أن مسألة الحالة عنده غير مرتبطة بتطبيق هذا التطور التقنية والتكنولوجية، لأن الأعمال الفنية تنمو وتتطور بذلك الكم الهائل من استخدامها الواسع، ودور الفن يكمن في التسلية، وقاعدته في ذلك هي إعادة التيار للبعد التجريبي على عكس "بينيامين " الذي يؤكد على ضرورة ربط الفن بتلك الوسائل الجديدة كالسينما وغيرها، وحسب أدورنو أنه إذا ضاع هذا الفن عن بعده الثقافي فهذا يعتبر من الأمور السيئة، فيتحول إلى النقيض ويصبح مجرد سلعة لدى الجماهير بهدف تحقيق اللذة والرفاهية لكن الفن الأصيل على العكس من ذلك لا يهدف إلى تحقيق تلك اللذة والفن الحقيقي هو الذي يسعى إلى التخلص من تلك السيطرة والهيمنة وهو يأتي على عكس أيضا ظلم تلك المؤسسات التي تسعى إلى السلطة والاستبداد.120

لا تزال ظاهرة الإبداع الفني محطة اهتمام لدى الكثير من الفلاسفة والمفكرين وهكذا يحيلنا الأمر أن ننتقل إلى موضوع جمالي آخر وهو الموضوع الصناعي والذي نتحدث فيه هو الآخر عن الصناعة الثقافية.

وبالتالي فإن الحديث عن الفن ومدى التمسك به هو الآخر تحول فقد برز مبدأ المنفعة وساهم في تشكل الفن، حتى أصبح عنصر لمصطلح الذوق أو المتعة، فكل حاجة كما يؤكد هوركهايمر وأدورنو يجب أن يوضع تحت هذا النمط الوحيد للمتعة وأن الغرض من استعمال الفن يكون مثالية سلعة فقط حتى أصبح هذا الفن يشير كسلعة ومشاهدته في الصناعة الثقافية ولقد كان للفن أهمية بالغة في الحياة اليومية، لأنه وحده القادر عن تحقيق الأغراض الإنسانية، وبفضله تفوى العلاقات مع الأعمال الفنية له همة عالية ومنشودة.121

يتضح من خلال هذا أن أدورنو قام بتمييزه بين نوعين من الثقافة فتحدث عن الثقافة الشعبية التي تكون عن طريق تلك التجربة المعاشة ويتم نقلها أيضا عن طريق تلك العلوم وغيرها، أما الثقافة المصنعة قد تكون عن طريق تقدم المجتمع الصناعي يؤدي بدور محدد يخص بتشكيل والتوجيه السلوك أشخاص المجتمعات.122

وبهذا فإن الصناعة الثقافية في طياتها ينبغي أن ترتبط بالفن من جهة، والتحليل من جهة أخرى وفق نمط جديد للجماهير، وقد كانت بداية أدورتو واضحة مؤكدا أن للجمهور دور مهم في الأعمال الفنية، كما أشار أيضا إلى مصطلح الجمهرة وأنها توحي بتحول راديكالي العمل الفن ودوره في

120- كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، المرجع السابق، ص109.
121- ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق، ص69
122- المرجع نفسه، ص 69

المجتمع بحيث يصبح الفن متغير إلى بعد سلبي بعدما أن كان مدركا به وبالتالي فإن أدورنويقوم أيضا بالتمييز بين مختلف الأعمال الفنية وبين أشكال الصناعة الثقافية والتي يعتبرها مجرد وسيلة للمتعة والتسلية، وبذلك لم يصبح الفن في ذلك البعد الصناعي للثقافة مجرد انطلاق شامل للمعرفة بل يعتبر وسيلة لتغير عن آراء الجماهير مما يؤدي إلى التأكيد في مدى اهتمام الصناعة الثقافية بنجاحات الأفراد والفئات وهذا ما سعت إلى القول أن مفهوم الثقافة صار مرتبط بالحياة ونمو المجتمع بمدف تحقيق الأغراضفي ميدان الحياة الاجتماعية.123

ونخلص في الأخير إلى أن النظرية النقدية عندما فكرت في فكر الحداثة واستنتجت مآلاته المأساوية على الفرد والمجتمع حاولت أن تبني فكرا جديدا ينزع إلى الممارسة العقلانية النقدية تواجه وتعري واقع الحداثة بعقلانيته التقنية الأداتية حيث تحول كل شيء إلى قيم مبتذلة ومعالم مشوهة ورغبات منحطة، غير أن التفكير النقدي للنظرية لم يستطع أن يراوح مكانه لأنه عجز عن تصور البديل النظري القادر على إحداث الرجة المطلوبة في بحر الحداثة، لذلك فإن كل تفكير في نقد عقلانية الأنوار ومادية الحداثة سينطلق ضرورة من النتائج التي انتهت إليها النظرية النقدية وبالأساس من عملية تجاوز الأفق الجمالي الذي انحصرت فيه نحو تأسيس أفق نظري كفيل بتصحيح وتعديل أخطاء وتناقضات الحداثة.[124]

123- ايمان مسعودي , لندة لحرش , المرجع السابق ،ص 70

124- حسان حمون، مدرسة فرانكفورت وأزمة الحداثة الغربية , مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية ،المجلد 20 ، العدد 4 ، 2021، ص 281.

الخاتمة

خاتمة

وفي الأخير يمكننا القول بأن أدورنو كان متفقا مع هوركهايمر إلى حد كبير في تشخيصه للوضع القمعي الأداتي الذي وقعت فيه الإنسانية، وذلك بسبب ما قام به العقل التنويري، فبدل أن يخرج الإنسان من المثالية الخرافية والأوهام التي كانت تنتابه وخضوعه للطبيعة وما كان يروج له رجال الدين، إلا أنه انقلب إلى نقيضه وأصبح بذلك تنويرمعكوس، وبلغ العقل الأداتي ذروته مع ديكارت وفرانسيس بيكون حيث أنه في البداية سيطر الإنسان على الطبيعة ومن ثم سيطرة الإنسان على الإنسان، وبلغت الوضعية مع أوغست كونت ذروها العلمية القائمة على المنطقية التجريبية، جاعلة من الملاحظة والتحليل والاستنتاج الأساسي في عمليئها، لأن الوضعية، تجعل من نفسها علم حقيقي يقيني يحقق منافع مادية للإنسان وهذا ما أدى بقمع الحرية الإنسانية، وتحول العقل إلى اللاعقل وأدى بالإنسان لاغترابه وتشيله خاصة مع الأنظمة الرأسمالية التي فرضتها البرجوازية على المجتمع الألماني، فتصبح العلاقات بين الناس منوترة، ويغترب الفرد حتى عن ذاته أن الاقتصاد هو الذي يحكم سلوكات البشر، دون أن ننسى في ذلك ما قامت به الأنظمة النازية والشيوعية من قمع حرية الناس، وجعلهم تابعين.

ومن هنا بعد تشخيص أدورنو لهذا الوضع جاء بالنقد الجذري الراديكالي لهذا العقل الأداتي وما قامت به النزعة الوضعية من ادعاء العلمية للارتقاء بالإنسانية ونقد العقل التماثلي خاصة الهيغلي القائم على نظرية الهوية التي تجمع الذات بالموضوع وتجعل من الذات هي المركز والموضوع هو التابع، والقول بتماثلها، والأساس الذي ارتكز عليه هنا أدورنو في نظريته النقدية هو الجدل السلبي من خلال النقد لهذا المجتمع وتبيان الوجه الخفي للواقع ونقده للتماثل بين الذات والموضوع وقوله باللاتماثل بين الذات والموضوع واللاهوية، ففي رأيه من السلب تستطيع أن تخرج للإيجاب لهذا نجد بأن أدورنو تماشى مع هوركهايمر، لكن وقف هوركهايمر عند هذه النقطة النقدية التي لم تخرج به إلى حلول ورجع بذلك إلى اللاهوت، واعتباره أنه هو مصدر الحقائق لكن أدورنو هنا لم يبقى عند هذا الحد، وإنما انفتح على عالم أخر لتحقيق الحرية، ليتجاوز ما قامت به العقلانية الأداتية، وهي النظرية الجمالية جاعلا من الفن هو الحل الوحيد الذي يجب أن تتبعه الإنسائية للخروج من الهيمنة الأداتية، لكن لا نقصد بذلك الفن الذي يروج للثقافة الصناعة، القائمة على منافع مادية، وإنما الفن الذي يقوم على الإبداع وهدفه التحرر وليس المنفعة.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1) ماكس هوركهامبر، ثيودور أدورنو: جدل التنوير، ترمجة جورج كتورة، ط1 ،دار الكتاب الجديدة االمتحدة، بيروت ، لبنان، 2006

2) توم بوتومور مدرسة فرانكفورت، ترمجة سعد هجرس، ط2 ،دار أويا، بنغازي، ليبيا.

3) كمال بومنير: ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيتيقا مقاربات فلسفية، ط1 ،دار الأمان، الرباط، 1432هـ-2011م.

4) كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهامير إلى أكسل هونيث، الدار العربية للعلوم والنشر، بيروت، لبنان، ط1،2010

5) كمال بومنير: قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، ط1 ،مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 1433هـ-2012م

6) كمال بومنير: الجماليات المعاصرة الاتجاهات و الرهانات، ترمجة ماركس جيمنري، دار الالمان، الرباط، 2001 ،

7) كمال بومنري: جدل العقلانية في الفلسفة النقدية لمدرسة فرانكورت منوذج هربرت مركيوز، ن ط1 ،الدار العربية للعلوم الناشرون بريوت، لبنان، 1431هـ-2010م

8) يورغن هابرماس: المعرفة والمصلحة، ترمجة حسن صقر، ط1 ،منشورات الجمل، كولونيا، أملانيا، 2001

9) رمضان بسطويسي محمد: علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو نموذجا، ط1 ،مطبوعات نصوص 90 ،القاهرة، 1993.

10) علي حرب: موسوعة الأبحاث الفلسفية الغربية المعاصرة، الجزء الأول، ط1 ،دار الأمان، الرابط، 1434-2013م

11) آلان هاو: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ترمجة ثائر ديب، ط1 ،دار العني، القاهرة، 1431هـ-2010م

12) عبد الغفار مكاوي ، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مؤسسة هنداوي سي اي سي ،المملكة المتحدة ب.ط

13) جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة ، ترجمة فاتن الفستاين،المنظمة العربية للترجمة،علي موالا ،بيروت، ط1، اكتوبر 2008

(14 Schiler Friedrich, lettres sur l'éducation esthétique de l'homme, Traduit de l'allemand par Robert Leroux, Edition Aubier, Paris, 1943.

قائمة المجلات و المواقع الالكترونية:

(15 بسطاويسي رمضان ، الأسس الفلسفية لنظرية ادورنو الجمالية، مجلة أوراق فلسفية، العدد السابع، ديسمبر2002، مركز النيل للكمبيوتر، القاهرة (مصر)

(16 _ توفيق شابو، النزعة النقدية الثقافية عند مدرسة فرانكفورت، براديغمات الانسان–الثقافة–الفن، مجلة اللغة العربية وآدابها ، المجلد 05، العددالاول، جامعة البليدة، ديسمبر 2017

(17 _ مجلة جامعة دمشق_المجلد30_العدد 3و4_ 2014_ رشيد الخاج صالح

(18 عبد المحسن المرشد،اشترك في 25 .03. 2005،الصفحة الالكترونية،جسد الثقافة،العنوان: فلسفة أدورنو ونقد التنوير ، تاريخ الدخول لهذا الموقع 10/07/ 2014 ،عنوان الموقعaljsad.net .

(19 نور الدين – المغرب علوش ، نقد ادورنو لفينومنولوجيا هسرل ، الموقع الالكتروني www. asjp. cerist. dz/en/article/ 16631, تاريخ الدخول في الموقع : 22جوان 2022

(20 موسوعة ستانفورد , ثيودور ادورنو , ترجمة سعود بن ضيعان , مراجعة سيرين الحاج حسينن، المجلة الالكترونية حكمة

قائمة الرسائل الجامعية:

(21 نورالدين بوزار، الفلسفة العلوم الاجتماعية عند مدرسة فرانكفورت ماكس هوركهايمر وتيودورأدورنو –نموذجا– دراسة تحليلية نقدية، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، اشراف سواريت بن عمر، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2، السنة الجامعية 2016––2017

22) 2017زيتوني خالد: إشكالية التحرر وأزمة الاستطيقا المعاصرة عند ثيودور أدورنو، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في الفلسفة، جامعة وهران2 ،كلية العلوم الاجتماعية، 2015-2016

23) كمال بومنير، مسألة العقلانية التكنولوجية في فلسفة هربرت ماركيوز ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، اشراف د محمد بلعزوقي،جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007/2006

24) محمد سباع ، النقد الفلسفي للعلم و التقنية عند مدرسة فرانكفورت،"هابرماس " نموذجا , مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، اشراف د بعنون حدة، جامعة البويرة ، قسم الفلسفة ، السنة الجامعية: 2017/2016

25) كادي قادة عبد الجبار ، الثقافة والجمال عند ثيودور أدورنو , مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير، اشراف سواريت بن عمر، جامعة وهران ، قسم الفلسفة ، السنة الجامعية: 2016/2015

26) ايمان مسعودي , لندة لحرش ، نقد العقل لدى الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت ،مذكرة لنبل شهادة الماستر في الفلسفة ،اشراف جلول مقورة، جامعة محمد بوضياف، قسم الفلسفة، السنة الجامعية: 2018/2017،

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحات
شكر وتقدير	
إهداء	
مقدمة	أ-ج
الفصل الأول: المرجعيات الفكرية لادورنو	**02-20**
المبحث الأول: فلسفة تيودور أدورنو	**02**
المبحث الثاني: علاقة ادورنو بماركس	**08**
المبحث الثالث: علاقة ادورنو بهسرل	**12**
المبحث الرابع: علاقة ادورنو بفرويد	**18**
الفصل الثاني: في نقد المجتمع الغربي المعاصر	**23-40**
المبحث الأول: اليات السيطرة في المحتمع الغربي المعاصر	**23**
المبحث الثانيالمفاهيم الأسطورية المسيطرة على الثقافة الغربية.	**29**
المبحث الثالث: الصناعة الثقافية وأشكال السيطرة في المجتمع الغربي	**38**
الفصل الثالث: نقد العقل التنويري عند ادورنو	**42-66**
المبحث الأول: العقل الأداتي وعصر التنوير	**42**
المبحث الثاني: النقد الجذري الراديكالي للعقد الأداتي.	**53**
المبحث الثالث: تجاوز العقل الأداتي عند أدورنو	**61**
خاتمة	**68**

قائمة المصادر والمراجع	**70**
فهرس المحتويات	**74**